الشاطئ الأزرق

رواية

ليلى صياح الحسين

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : الشاطىء الأزرق

اسم المؤلف : ليلى الحسين

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : 2020

الترقيم الدولي : 7 – 19 - 6792 – 977 - 978

رقم الإيداع : 2853 / 2020

تدقيق لغوي : نجاح السرطاوي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

الإهداءُ

أقدم هذه الرواية لكل شخص جميل مرّ معي في حياتي ووضع بصمة حب وصدق من النوايا الحسنة والمشاعر الطيبة...

أهديها لروحي أمي وأبي...

و إلى زوجي وأبنائي لأنهم بسمة الحياة على الأرض وهم الأوكسجين الذي ينعش الروح والذاكرة بعد يوم طويل وشاق...

شكرًا جزيلًا لكل من سعى في نشر هذه الرواية

أهديها للأستاذة نجاح السرطاوي التي قامت بالتدقيق اللغوي....

أهدي كلماتي للأستاذ محمد وجيه الذي قام بالتنسيق و الترتيب و الطباعة و النشر

تحياتي وتقديري وامتناني

المؤلفة : ليلى الحسين

****

المقدمة

كنتُ أظن يومًا ما... أن السعادة هي في نيل الشهادات واللعب والضحك والتفوق والمنافسة بين الطلاب والرفقة والتباهي بما حصلت عليه من علامات وشهادات تقدير، وإنني كسبت الكثير من العلم والمعرفة والثقافة، ثم اكتشفت بعد ذلك أنني أسعى للجلوس وراء مكتب مُكدس بالأوراق والتواقيع وأنني موظفة بسيطة تسعى وراء راتب شهري يحميها من الفقر والعوز. ثم ظننت أن السعادة تكمن في الزواج وبناء منزل جميل أستريح فيه بعد يوم طويل للاسترخاء والقيلولة والاستجمام والضحك واللعب مع زوج يحبني ويسمعني عندما أريد أن أتكلم معه بعد يوم شاق وطويل في العمل. ولكنه في كل الأوقات هو مصغٍ لسماع صوت المذياع والتلفاز والنظر في فساتين ومغريات الفنانات والمذيعات. ثم اكتشفت بأن هذا البيت الجميل الذي استهلك نصف حياتي لبنائه هو وكر للتنظيف والأعمال الشاقة التي لا تنتهي. من غسيل وكي الثياب وترتيب الأشياء المملة ومسح الغبار كل يوم كأنني أمسح يومًا ثقيلًا من حياتي.

ثم عدت من جديد للظن بأن الأولاد هم السعادة وجنة الحياة على الأرض. اكتشفت أن الأولاد يصرخون ويبكون منذ الولادة بوجهي لفرض حكم الأمر الواحد في تنفيد وتلبية طلباتهم بالعقاب لي، لأنني أتيت بهم إلى هذه الحياة المملة من وجهة نظرهم. وهم لا ذنب لهم في هذا الأمر كانت مجرد خطيئة نحن من ندفع ثمنها لأنني أنجبتهم في مجتمع يفوق أحلامهم ومن ثم يرحلون وهم يودعونني ويصرخون بالحياة المملة التي عاشوها بكنف أشياء سخيفة قدمت لهم من قبلنا أنا ووالدهم. ثم عدت للبداية لأبحث عن السعادة في ترتيب الأمور والأوليات من جديد قد تكون موجودة في مكان ما... أو بين أشياء قديمة من أصحاب وأقرباء قدامى و صور وذكريات وأحلام. عندها أدركت أن الحياة تقدم لنا هذه الأشياء للاستمرار فيها والبحث في المجهول لنبقى فقط على قيد الحياة. وهنا عدت للبداية أن لا أبحث في الماضي أو بين أشيائي القديمة لن أجد ما فقدناه سوى الندم والحسرة على اختياراتنا السيئة. إن أردتم السعادة ابحثوا عن أثمن شيء موجود لديكم ، إذا وجدتموه فإنكم سعداء و تتمتعون بشيء، غيركم يتمناه.

في المياه العميقة وجدتها أخيرًا، بعد بحث طويل كل يوم غطس مستمر لمدة شهر كامل، تحقق الهدف أخيرًا.
في كل مرة أرى رجلاً وسيمًا في عقده الرابع من العمر عند الصباح الباكر يرمي زجاجة يخيل لي دائمًا أن في داخلها رسالة لا أعلم ما يوجد فيها.
يقف قبل بزوغ الفجر بلحظات أمام موجة قوية جاءت من عرض البحر، أظن بأن هذه الموجة تحمل معها أشياء كثيرة.
أسرار وأحلام كل من مرّ على الشاطئ، أخبار وقصص من أراد أن يخبر صديقًا قصته لصديقته، أو حكاية أمّ مع أولادها، أو قصة عاشقين فقدا الأمل في مواصلة الحياة برفقة بعضهما البعض.
كاد الفضول والشك أن يقتلني لأعرف ما سر غموض هذا الرجل وما حدث معه في الماضي، ولِمَ في كل مرة أراه عند عودتي من الغطس يرمي بالزجاجة وداخلها رسالة.
في أول مرة رأيته يرمي الزجاجة خيل لي
إنها زجاجة مشروب يشرب فيها ويرميها في البحر قلت في داخلي أيعقل أن يرمي بزجاجته في البحر أين منظمة حماية البيئة عنه ؟
ولكن لاحظت بوجود ورقة بداخلها، فقررت حينها أن أعرف ما هو الشيء المكتوب في تلك الرسالة.
وفي كل مرة أغطس فيها إلى عمق البحر ولا أجد شيئًا أصاب بخيبة أمل كبيرة ثم أعود إلى بيتي خاوية اليدين.

ذات صباح هادئ قررت أن أغوص في البحر دون أن أضع في رأسي أن أبحث عن الزجاجة أو أي شيء آخر، فقط أغوص لكي أستمتع بالمياه الدافئة.
حينها وجدتها ووجدت في داخلها ورقة انتشلتها من الأعماق وخرجت بها إلى سطح البحر ولكن عندما وجدت الزجاجة كانت مفتوحة وفي داخلها ورقة مبللة.
أصابتني خيبة أمل بعد كل هذا الغطس المستمر لمدة شهر في البحث عن أي زجاجة من الزجاجات التي كان يرميها أجدها بالنهاية مفتوحة ومبللة.
لم أستطع حينها معرفة حقيقة أمره.
بعد عودتي من الغطس رأيت ذلك الرجل الذي يرمي رسائله في البحر يقف أمامي في فناء منزلي.
تفاجأت كثيرًا وأصابتني حالة من الدهشة والذهول، فيها شيء من السعادة الكامنة، حينها غابت كل الأسئلة في رأسي.
الشيء الوحيد الذي خطر على بالي أنه وسيم وجميل ويقف أمامي يا لهذا الحظ الرائع.
حينها فكرت بأشياء كثيرة خطرت على بالي كانت أفكارًا مترددة تخصنا أنا وهو.
ثم عدت إلى صوابي هناك أمر خفي وراء رمي ذلك الرجل لسر ما في عمق البحر.

نسيت أن أحدثكم قليلًا عني، اسمي " أيلول" تولد دمشق، ذات مزاج متقلب بشكل دائم، ورثته من والدي، وطبع هادئ وصبور ورثته من أمي، ولكني كثيرة الشك والقلق والظن.

أحلل الشخصيات التي تمر أمامي. فلا أعلم هذه الصفة ممن ورثتها.

مقيمة حاليًا في بلغاريا، في مدينة اسمها مورلي على الشاطئ الأزرق.

تنحدر تسمية الشاطئ الأزرق نسبة للجبل المطل على البحر مباشرة يقال أنه هناك زهرة اسمها زهرة الأجراس الزرقاء Blue Bells وهي زهرة مميزة وجميلة، تزهر في فصل الربيع وتنتشر في الغابات الأوروبية، لتبدو كما لو كانت سجادة زرقاء على أرضية تلك الغابات، فبالرغم من جمالها وأناقتها إلا أنها كانت ترمز إلى العزلة والأسف عند أدباء القرون الوسطى.

لذلك يطلقون عليها مدينة الشاطئ الأزرق.

انتقلت إلى هنا منذ مدة عند بداية الأزمة في سورية أواخر عام ٢٠١١.

أعمل صحفية لإحدى المجلات الإلكترونية والورقية، أكتب لهم قصصًا واقعية وحقيقية عن حياة البشر.

أكره المتشددين دينيًا ورجال السياسة ولا أعمل بها أو أنشر أية تفاصيل عن حياتهم.

رغم أن السياسة والاقتصاد هما من يدير حياتنا بشكل يومي ومرتبط بنا بكل تفاصيلها ااااااااااااااااااااالصغيرة والكبيرة،. ومع كل ذلك أبتعد كل البعد عن الدخول في أي حديث أو نقاش يدار حولهما لأنه بكل بساطة، إذا أردت أن تتعرف على شخصيات أي بلد اقرأ تاريخهم الاقتصادي والسياسي ستعرف من يكونون.

عندي هواية أمارسها منذ الصغر هي السباحة والغطس، ولكن منذ إقامتي في هذه المدينة بدأت أمارس عَمَلًا جديدًا وهو جمع أشياء وتحف نادرة من قاع البحر، أحيانًا أبيعها، وأحيانًا أحتفظ بها، حسب ما أحتاج إليه من نقود.

جمعت قطعًا نادرة تعود لمئة عام وأكثر بكثير، في أغلب الأمر أجد أشياء لا قيمة لها. ولكن أحتفظ بالقطع الجميلة النادرة التي تعجبني كثيرًا .

في أحد المرات، كانت تنتابي نوبة غضب شديدة، إثر تعرض أحد أصدقائي لحادث سير مروع، كاد أن يؤدي إلى وفاته ولكن القدر نجاه من موت أليم، من شدة حزني عليه، وعدم قدرتي على تحمل موت أحد آخر في حياتي، كأخ لم تلده لك أمك، أو أحد عزيز كموت أمي وأبي أو ابن عم أو عمة أو جارة.

كان الموقف حين ذاك مروعًا ومدمرًا للأعصاب، غطست في الماء لأستعيد شيئًا من ذاتي وأقلل من حدة الغضب الكامنة في داخلي.

وجدت عقدًا من الزمرد و الألماس، مكتوب عليه اسم حبيبة أحد الأمراء في القرن الماضي. بحثت عن قصتهم فوجدت حكاية مروعة عنهم.

يحكى أن الأمير كان على علاقة بفتاة من الطبقة الوسطى أو الفقيرة على ما أظن، أقام لها حفلة خاصة على أحد المراكب التي كان يبحر بها في أوقات فراغه، وصل الخبر إلى زوجة الأمير، فعلمت بعلاقته الغرامية السرية مع عشيقته، كانت زوجة الأمير قوية جدًا، وقوتها مستمدة من نفوذ والدها في بلاط الملك حينذاك.

دار شجار عنيف فيما بينهما، عندما رأت العقد في رقبة عشيقته قالت لهما:

بأعلى صوتها وبكل عنف وغضب. هذا هو العقد إذًا الذي رأيته بين ثيابك في غرفة نومنا.

كنت أظن أنه لي ستهديني إياه احتفالًا بعيد الميلاد، غير أنه جاء به لك أيتها الساقطة الحقيرة.

ما كان بالزوجة الغاضبة إلا و سلت سكينًا من على الطاولة التي كانت أمامها. وغرزتها بعنق الفتاة، تناثر الدم مع العقد وسقطت العشيقة على الأرض فأمرت حارسها الشخصي أن يرميها في المياه الراكدة.

تقول الحكاية أن الأمير رمى بنفسه وراء الفتاة لينقذها ولكنهما غرقا معًا.

وهكذا انتهت حكاية عشقهما المروعة.

أما زوجة الأمير تقول الرواية أنها تزوجت من رجل آخر بعد وفاة زوجها بمدة قصيرة وأنجبت منه ثلاثة أولاد ذكور.

سأكمل لكم الآن كيف بدأت قصتي مع الكتابة.
منذ كنت ما أزال صغيرة كانت تشدني كثيرًا الحكايات وقصص المغامرات، وأطلب من والدي أو والدتي أن تحكي لي حكاية وبما أن أمي مشغولة بضيوفها وعدد إخوتي الكبير، تحكي بدايتها ثم يكمل أحد من أخوتي الأكبر باقي الحكايات.
عندما كبرت قليلًا وبدأت أشعر بالحياة وما يوجد حولي اكتشفت في داخلي هواية الكتاب والمطالعة. بدأت أتردد على مكتبة المدرسة وأقرأ ما يوجد لديهم من كتب. ثم توسعت أحلامي وأخذت أتردد على المكتبة الموجودة في أول البلدة كان لا توجد في ذلك الوقت إلا مكتبتان حصريًا في كل المنطقة التي أقيم فيها واحدة اسمها مكتبة الثقافة والأخرى اسمها مكتبة أيبلا.
عند عودتي من المدرسة كنت أردد دائمًا
و أقول: أن الكاتب الجيد لا يحتاج لمكتبة ضخمة ورفوف مكدسة بالكتب ليبدع أو ينشر ثقافته، بل يحتاج لعقل وخيال يسرح بين أطياف الحياة يستخلص العبر ويكتب عنها.
كنت أنام وأصحو وأنا أحدث نفسي كل يوم على نفس العبارة على الفطور والعشاء وأنا أسير بالشارع و عند ذهابي لمدرستي
وعودتي منه.

أجل... أجل أنا بحاجة لأفكار تكرس الصراع الداخلي ولا تخل بتوازني لأستطيع أن تنبت عندي فكرة وأكتب عنها.

هكذا كنت أردد بشكل دائم الكاتب لا يحتاج لكل هذه الكتب المكدسة فوق بعضها البعض لتظهر موهبته هو فقط يحتاج لقلم ومحبرة و ورقة وبصر وبصيرة لتنقل إبداعاته، في الكتابة.

كنت أقول سأكتب مهما حصل حتى لو وضعوني في قفص صغير.

لا يستطع أحد أن يمنعني عما أفكر فيه، أجل هذا العقل لي والفكر لي وكل ما يتعلق بجسدي هو ملك لي، يدي اليمنى ملكي وتستطيع يدي اليسرى أن تساندها عندما تحتاجها للمساعدة.

إذا أخذوا كل ما كتبته على الورق لم يستطيعوا أن يأخذوا عقلي ويدي مني ، سأتوجه غدًا صباحًا لسوق المستعمل القديم

هناك أشياء كثيرة للبيع سأحصل على آلة كاتبة آخرى غير التي صادروها مني. وإذا لم أجد سأذهب إلى برج الروس خلف ساحة الحجاز، سأبتاع واحدة جديدة

كانت صدمة قوية حدثت معنا ضمن العائلة، أثرت بشكل سلبي على وضعنا المعيشي والاجتماعي والنفسي وكل شيء.

منذ مدة من الزمن عندما كنت في دمشق وفي أول أيام حياتي.

حدثت مفارقات رهيبة في وضعنا المادي إذ تم الحجز على منزلنا وكل ما نملك من أموال وممتلكات بسبب بعض القروض التي كانت متراكمة على أبي في العمل.
كانت الآلة الكاتبة من ضمن الأشياء التي شملها الحجز جاء أمر من المحكمة، بالحجز على جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة .
كان لدي شغف كبير في الكتابة، كل ما أشعر به أنقله على الورق، وأطلب من أبي أن يقرأ ما أكتبه لأنني أثق في رؤيته للأحداث التي أدونها على دفتر مذكراتي فهو خير ناقد ومشجع لي
في حينها شعر والدي أن لدي هواية الكتابة، ابتاع لي من أحد متاجر البحصة في مدينة دمشق القديمة آلة كاتبة صغيرة.
ذلك اليوم لن تنساه ذاكرتي حتى لو أصابني الزهايمر.
الحادي والعشرين من شهر نيسان سنة ألف وتسعمائة وتسع و ثمانين.
عند الصباح الباكر، طرق أبي باب غرفتي طرقتين متتاليتين، كانت هي طريقته الخاصة و المعهودة أميزها من بين كل من حولي من إخوتي وأخواتي قال: لي كيف حالك يا عصفورتي الصغيرة كل عام وأنت بألف خير، هذا أحدث موديل لديهم لهذا العام، في الثمانينات من القرن الماضي لم تكن الجوالات ولا الكمبيوترات متوفرة بشكل كبير، حينها كانت هذه الأجهزة مقتصرة

وعلى نطاق ضيق جدًا في المؤسسات الحكومية والشركات التجارية والصناعية الخاصة فقط.
قال لي هذه هديتي المتواضعة لك في عيد ميلادك السادس عشر، أتمنى أن أرى الكثير من الروايات والقصص وتشتهرين بكل أنحاء العالم.
ومن حينها وأنا أكتب وأجمع كل ما أكتبه في مصنف خاص.
ومن ثم تم الحجز على منزلنا في دمشق وبقيت جميع الكتب والأوراق و الآلة الكاتبة في المنزل، بيع المنزل والأثاث في المزاد العلني، وضاع كل شيء.
بعد مرور الزمن والسنين انتشرت الكمبيوترات الحديثة وبدأت أدون كل شيء عليه.

كـان أجمـل صـباح يمـر فـي حيـاتي عنـدما رأيـت ذلـك الرجل الأربعيني الذي يرمي بزجاجته يقف أمامي.
أخبرتكم أنني غطست دون أن أتوقع أنني سأجدها لكي انتشلها، لأن التيار كان يقدف بها إلى أماكن لا أعلم أين وجهته.
بعد أن وجدتها نظرت إليها تفاجأت أن الرسالة مبللة، وعاد السؤال لرأسي لِمَ يرمي الزجاجة وهي مفتوحة وليس لها غطاء تحمي كل ما يكتب.
عند وصولي إلى البيت من رحلة الغطس أتفاجأ أيضًا بذات الرجل الجميل القوام بهي الطلة ينتظرني. و يقف في فناء منزلي، ذهلت من شدة الصدمة شهر كامل في البحث.
أراه بشكل دائم يرمي بزجاجة بها في البحر، ها هو الآن يقف أمامي
كاد حينها الفضول يقتلني، وأتشوق لمعرفة ما في داخلها.
صعقت وأصابتني صدمة قوية حين وجدتها مفتوحة وبداخلها ورقة مبللة بالماء. ها هو الآن هنا بشحمه ولحمه، يقف أمام فناء منزلي، يا ويل حظي وأخيرًا استجاب القدر للنداء. كنت أتأمله كل يوم وهو عائد من مكان عمله
حاولت مرارًا وتكرارًا، أن أتقرب منه ولكن كان يرمقني بتلك النظرة الحادة الرافضة لأي محادثة حتى

لو كانت بسيطة، ما الذي غير موقفه! ورأيه وجاء به إلى بيتي!!
ها هو؟ الآن هنا أمامي.
قال لي: مساء الخير سيدتي
أجبتهُ.. بذهول!
مساء النور تفضل سيدي هل أخدمك بشيء ؟
لِمَ أنت هنا؟
هل حدث شيء ما؟
يرد علي بهمس ناعم وهادئ ورقيق!
لا لم يحدث شيء، ولكن أعلم جيدًا أنك تبحثين عن الزجاجة التي رميتها عند الصباح، لقد شاهدتك تنظرين لي، عند رميها إلى قاع البحر، والآن ها هي أنت تمسكينها بيدك هنا.
حاولت أن أخفي الزجاجة ولكن كان أمرها مكشوف ومفضوح.
قلت له ولكن الرسالة بداخلها مبللة بالماء.
أجابني أجل أعلم ذلك جيدًا
فدعيته للدخول لمنزلي لكي نتحدث عن الموضوع ولكنه رفض.
قال لي: لا سيدتي لا أريد الدخول...
سأنتظرك هنا بينما ترتدين ملابسك.
قلت له:حسنًا!! ولكن لديّ موعد مهم ، سأجتمع مع صديقاتي بعد قليل في المقهى الموجود بنهاية الشارع، هل تعرفه ؟

قال لي نعم أعرفه جيدًا، دائمًا أراك هناك مع صديقاتك.
حينها أصابني الخجل كنت مرتبكة مما حصل، ومذهولة عما يحدث معي.
كيف علم أنني أبحث عن الزجاجة؟ أمر محير. هل هو ذكي جدًا، أو أن نظراتي له فضحت أمري.
دخلت إلى المنزل وعلى عجل ستحممت وارتديت ملابسي، ووضعت أجمل نوع من أنواع العطور لدي والقليل من المكياج على وجهي، فأنا لا أرغب بوضع المساحيق الفاضحة على البشرة والتبرج بشكل ملفت للانتباه.
نظرت من خلف الستار.
رأيته، ما يزال ينتظرني في فناء المنزل.
إنه هنا، يداعب الورد المزروع على سور الحديقة.
يا قدري.!! ماذا يحدث آثار جنوني.
لبست حذائي بسرعة، وخرجت من باب المنزل مبتسمة له.
قلت له: مرحبًا ، أنا جاهزة، هيا بنا أتريد أن تمشي.
قال لي : لديك منزل جميل وحديقة رائعة.
قلت له أجل. أعيش هنا منذ مدة.
مشينا بجانب بعضنا البعض وكان يمشي بكل خفة ورشاقة وجمال.
سر هذا الرجل مكتوب، في تلك الرسالة المبللة بقعر الزجاجة.

هو جميل جدًا ورائع، أسمر بلون رمال الصحراء، عيناه خضراء اللون، ممشوق القامة، يمتلك لياقة بدنية عالية، أكيد أنه يمارس ألعاب الرياضة والجم، هو حلم أي امرأة ترغب بتلك المواصفات.

يمشي بجانبي، ويتلفت إلى يمينه وشماله

لا أعلم لماذا؟

كم تمنيت أن يضع يده بيدي و يسألني عن حأي شيء.

ونحن نتجه نحو الشاطئ خطر على بالي أن أسأله عن حياته وعمله، وأين يقيم وأكسر جدار الصمت الذي يحول بيننا.

الفضول من جديد يقتلني ، أريده أن يحدث أي حديث لأكسب منه بعض المعلومات عنه وأكسر شعور الخجل الذي أنتابني.

هل هو متزوج أم أعزب أو عنده حبيبة ؟

قال لي: أنا أعمل في أحد مصانع المدينة، مهندس كمبيوتر.

قلت بيني وبين نفسي يا قدري ما أروعه،

لا أصدق أنه يتحدث معي ويمشي بجانبي، منذ مدة وأنا أحاول أن أقترب منه.

قال لي: اسمي(ذهب)، من (بانياس) في سورية ولدت عام (١٩٧٤) أكملت تعليمي في الجامعة وتخرجت بأعلى العلامات.

التحقت بالعمل فور تخرجي، ثم تركته بسبب بعض الظروف الكثيرة والخاصة.

قال السيد(ذهب) لقد جئنا إلى بلغاريا أنا ووالدي ووالدتي، منذ مدة ليست بالطويلة. كانت إقامتنا في (سان جون) القريبة من مدينة الشاطئ الأزرق ثم انتقلنا إلى هنا في مورلي.

قلت له : لقد زرت بانياس عندما كنا في المرحلة الثانوية ذهبنا في جروب في رحلة مدرسية.

قال لي بانياس: هي مدينة ساحلية سورية جميلة تطل على البحر المتوسط وتتبع لمحافظة طرطوس، وهي المركز الإداري لمنطقة بانياس يبلغ عدد سكانها قرابة خمسين ألف نسمة وهي تمتاز بتركيبة طائفية متنوعة، تشمل المسيحيين والمسلمين السنة والعلويين، وتمتاز بجمال ومناخ رائعين جدًا وهي مقصد للسياح العرب والأجانب.

قلت لنفسي، ها هي بعض الأمور بدأت أخيرًا تتوضح أمامي.

يا للهول على هذه اللحظات الجميلة في هذه المدينة الفاتنة، في أبعد أصقاع الأرض، مدينة الخيال و الجمال، البعيدة جدًا عن أرض الأوطان والأحضان وعن الوطن الأم سورية الحبيبة.

هنا في مورلي كل شيء فيها يحدثك عنه البحر... هؤلاء الفتيات الجميلات يجلسن على الرمل يداعبن الحصى بأصابع أقدامهن ليشعرننا أنها تلامس أرواحهن وشغفهن في مدينتهم الزرقاء.

يتلونّنَ تحت أشعة الشمس لتحرق أجسادهن البيضاء فتصبح بلون الرمل قطعة من الذهب الأحمر، خرجت توًا من بيت النار، تلمع وتبرق وتثير أنظار الرجال.
أمد ببصري لأرى مجموعة من الشبان المراهقين يركبون الموج بمزالجهم فوق المياه الغاضبة القادمة من أعماق البحر
كأنهم ثيران هائجة، يتصارعون على أنثى، في موسم التزاوج.
وأجمل من ذلك كله صوت الطيور المهاجرة القادمة من السماء وعناق طيور النورس للمياه، ورائحة البحر، مع أشجار الغابة القريبة منه، كل هذا الجمال، يخفي وراءه أسرار وخفايا البشر.
هنا السكان الأصليون صنعوا من أغصان الشجر هندسة معمارية جميلة اختلط البناء القديم مع الهندسة المعمارية الحديث فأنتج أجمل منظر رائع وجميل اهتموا بصنع جميع أنواع المأكولات البحرية وأنشأوا عدة مطاعم ومقاهٍ حول الشاطئ لجذب أكبر عدد من السياح الأجانب الذين يقصدونها في إجازاتهم السنوية أو للعمل فيها.
اكتشفت في إقامتي على الشاطئ الأزرق مورلي طيبة أهلها والصبر في إنجاز أعمالهم والتقيد بأوقات العمل والالتزام بمواعيد الطعام والوقت.
تعتبر بلغاريا جزءًا من شبه جزيرة البلقان الشرقية، أغلب سكان بلغاريا هم من البلغاريين إلى جانب أقليتين

هما الأتراك والأقلية الغجرية وإلى وجود بعض الأقليات من الجنسيات المختلفة الأخرى.
مثل الأرمن والروس والتتار والمقدونيين أما اللغة الرسمية فهي البلغارية وينطق بها أغلب السكان وتعتبر هذه اللغة من بين الأصعب على مستوى لغات العالم.
أما الديانة في الغالبية في بلغارية هي الديانة المسيحية الأرثوذكسية بالإضافة إلى وجود الكاثوليك والبروتستانت بالإضافة إلى جانب بعض الديانات الأخرى
وفيها أماكن ومحميات جميلة جدًا يقصدها العديد من السياح للهروب من الضجيج والاستمتاع بمناظرها الخلابة.
منذ مدة ليست بالطويلة حضر، المحافظ ورئيس البلدية إلى المدينة، سألت أحد السكان الأصليين ويدعى السيد جان لِمَ كل هذه التحديثات والحفريات في المدينة؟
قال لي السيد جان: الكل يعلم أن المحافظ جاء قبل الانتخابات البرلمانية، فهو يطمع لشغل منصب وزير أو نائب في البرلمان.
لذا خصص للمدينة ميزانية من المال لتحديث الشاطئ، ووضع مقاعد خشبية عليها، ولافتات وتجديد الإنارة، وبناء أكشاك للسواح، وخدمات عامة، وأمر أيضًا بزيادة عدد حراس الحدود، بعدما ازداد عدد المهاجرين من خلف البحار.
وأصبحت مقصدًا للمهاجرين الأفارقة والآسيويين.

في كل مرة أرى مركبًا للمهاجرين والجثث الملقات على الشاطئ، أسأل نفسي ألف سؤال:
ماذا يحدث لو أن هذه الدول التي تصدر هؤلاء البشر، حاولت صنع شيء لهم ذي قيمة للإنسان حتى لا يلقوا حذفهم في مياه لا صلة قرابة لهم فيها، هي تقتلهم وتغرقهم وتعاقبهم بالموت لأنهم تركوا أوطانهم وذويهم.
من هو المسؤول عن موت هذه الأعداد من المهاجرين ؟
هل هي الدول التي أغلقت الحدود أو المهربين الذين يعتاشون من وراء هذه الأرواح؟.
جميع أسئلتي لا جواب لها في مخيلتي، أحيانًا أقول: أنه لقدرهم أن يصنعوا لأنفسهم الأمل
والأمل: يقوم هو بدفنهم غرقًا دون رحمة.
في هذه المدينة الزرقاء الجامحة، كل شيء فيها مباح، حياة الماجنين والسهر لبزوغ الفجر.
حتى الصدف يتحدث عن بؤس الصيادين المهاجرين في أعماق البحار، كأنها مؤامرة مدبرة بينه وبين الطغاة في العالم، يهربون من الدمار يغرقهم البحر في أعماقه.
كل شيء مدروس بعناية فائقة.
ونحن نسير باتجاه المقهى أشار السيد (ذهب) بيده نحو رجل يجلس على كرسي مصنوع من القش ويعتمر قبعة سوداء،
قال لي أرأيتِ ذلك الرجل الذي يصطاد السمك هناك ؟
أقول: نعم؛ رأيته. قال لي: السيد (ذهب) كلما اصطاد سمكة، أعادها إلى البحر من جديد، لاحقته بسؤال: هل

تعرفه جيدًا ؟ يرد على سؤالي: التقيت به عدة مرات عند أحد الأصدقاء.
يقولون أنه مصاب بالهستيريا، يتكلم طوال الوقت مع حاله، وأظن أنه يتخيل السمكات التي يصطادها هي زوجته. سمعته يحدث السمكة عندما خرجت من المياه، يفك الطعم من فمها: هل ستكونين نادمة لأنني لم أطلق سراحك وتتحررين مني؟
يجاوب نفسه: لا لماذا؟
لكي أشعرك بالندم.
وهل تريدين أيتها السمكة الغبية أن تتحرري من السجن الذي وضعتك به ؟
لا لا أريد هذه الحرية لأنك مسجون معي في نفس السجن، تحرسني خوفًا من الهرب، ألم تلاحظ أننا مقيدان معًا في نفس المكان ؟ كلانا يراقب الآخر، لا تستطيع أن تتركني كي لا أهرب.
وأنا أقيدك بخوفك علي.
ماذا تريدين ؟
أريدك أن تتحرر مني، أريدك أن تبتعد عني.
لا أريدك أن تشعر بي أو بوجودي، لماذا كل هذا الإصرار ؟
حتى لا يكون لك الفضل في تحريري!
يقول للسمكة وهي تتخبط في يده لِمَ تصرين على نزع كل شيء ؟

جميل لك بداخلي ؟ لِمَ لا تريدين فك قيودك مني؟ الآن سأطلق سراحك. وأنت تصرين على البقاء ما هذا الخوف في فهم ما يجول بيننا ؟
ماذا يجول في داخلك ؟ أنا مجنون.
لقد أصبتِني بالجنون اتركيني الآن.
يتخيل السمكة زوجته و تقول له ذلك، أريدك أن تعيش الدهر وأنت تراني أمامك ، وحلم يصعب الوصول له.
تتسلق الأحلام وتبني الأوهام، وعندما تصل يكون سرابك من الضياع كابوس من الانهيار.
يعلو صوته ويقول حرام عليك، كنت أشتهي القرب منك!!
أجل تريدني ملكًا لك أتجول معك في حقيبتك في محفظتك في سريرك، في أحلامك. وعند أية مشكلة أنا مجرد لا شيء، أنا مجرد امرأة ناقصة عقل.
لا حقوق لها، لا تعرف من الحياة سوى الإنجاب! وصنع قوالب الحلوى! ودمية ممتعة على سريرك؟
لا لا يا إلهي ارحلي هيا اذهبي بعيدًا، أجل الآن ساطلق النار في رأسي حتى أهدم السجن الذي وضعتك به وأتحرر من غضبك ولومك.
سأدفن أحلامي معك في مقابر جماعية.
لا. لا أريد هذه الحرية! يصيح بصوت مرتفع، لماذا لأنك ستبقى معي في نفس السجن والقبر ؟
تحرسني خوفًا من الهرب. لا تستطيع أن تتركني كي لا أهرب وأنا أقيدك بخوفك عليّ ، حينها يترك السمكات

تفرّ من مصيدته، ويعود إلى الحانة يشرب حتى ينطفئ. مسكين هذا الرجل من حبه الشديد لزوجته فقد صوابه بعد موتها، ظن أنها تركته وهربت منه.
عند وصولنا بلحظات، خرجت (ميمي) من باب المقهى القريب من الشاطئ. ألقينا التحية عليها، ودعتنا للدخول معها. بدأت بالمزاح، كيف قضت ليلة ساخنة. غارقة بالأحلام، والكلام المباح، بالنهاية حصلت على مبلغ زهيد من الرجل الذي قضت الليل برفقته !! شتمته بكل حسرة! وهي منفعلة ومتذمرة.
جعل منها الليل فتاة متعة تعشق الجنس، أسألها دائمًا نفس السؤال:
لماذا تمارسين الجنس وأنت لا تحتاجين للمال ؟ عندك ثروة تحلم بها أية فتاة؟
تضحك بملء حنجرتها حتى تبان أحبالها الصوتية. تقول:
للرجال أسرار لا يعرفها إلا من تعاشرهم. طبعًا مع غمزة ملغومة بعينها اليسرى.
كانت إلى جانبها صديقتي كرستين.
هي فتاة جميلة ورقيقة، وذكية، وملتزمة، وجدية بعض الشيء، تفوقت في دراستها بالمرحلة الثانوية، كان ينقصها عن المجموع العام بضع علامات ولكن اختارت أن تدرس في كلية العلوم السياسية ولم تختر الطب أو الهندسة، رغم أن مجموعها العام يدخلها أحد تلك الفروع. قلت لها ما أخبارك يا صديقتي ؟

كيف العمل معك في هذه الأيام؟.
ترد بكل سخرية وتذمر، إنه شاق ومتعب!! كنت سأولد ذكرًا ولكن ذلك المخلوق الفضائي، أنجبني أنثى.
أرد عليها: أجل تتحججين بأشياء كثيرة لتبرري أفعالك .
تقولين لي: لا أبرر لشيء، هكذا يسميه أيضًا الشيخ الذي يؤذن بالمصلين آخر الحي الذي كنت أسكن فيه في مدينة جرابلس بسوريا، كنت أسأله لِمَ تدعي الإيمان، وترشد الناس للعبادة وأنت لا تؤمن بوجوده.
إن أمرك مكشوف عندي، طبعًا بعدما دار نقاش طويل بيني وبينيه وجدال بين صد ورد، أخيرًا أخذت منه ما يفكر به وبعد سنين طويلة من الخبرة في أمور الدين والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
قال لها الشيخ : (من هو عدو الإنسان)، أجابته باستغراب: لا أعرف، فأجابها: الخوف يا صغيرتي هو العدو الوحيد للإنسان.
الناس حمقى وضعفاء، يخافون من أي شيء ويتوهمون أشياء لم يروها بأعينهم ويتبعون أي فكر لأنهم متخلفين ويتقيدون بالمجهول، ومن اخترع فكرة الدين.
هم أناس أذكياء جدًا اشتغلوا على موضوع (الخوف).
فأقول لصديقتي قول كريستين:
أستغفر الله العظيم منك أيتها الفتاة، ومن شيخك اللعوب.
وأنا أرمقها بنظرة حادة علّ وعسى أن تقتنع أن كلامها فيه شيء من الشك.

كـم أنـتِ خبيثـة تلعبـين علـى الكلمـات لتقنعـي نفسـك وتقنعيني بما تفكرين.
أجل يا صديقتي .. لا أحد يعلن عن نفسه أنه ملحد.
الكل يخاف من الآخر وفي النهاية كلهم مصالح.
تعاود الكلام وتقول لي:
حتـى أنـه قـال لـي: جميـع الكتـب ليسـت مفهومـة وغيـر مقروءة. وبعضها غير منقط وكأنها كتبت على عجل.
ومن رجال جاهلين لا يقرؤون إلا القليل.
وفي خضم حديثنا جاءت (سعاد).
قلنا لها أنـا وكريستين أخبريني مـاذا جمعتِ من سمك، تصرخ عاليًا وبغضب تكاد تلامس شفة التراب بشفتيها: تلك السمكة الحمقاء بعدما علقت فـي سنارتي، هربت مني.
يا الحظ السيء، لو اصطدتها لكنت جمعت مبلغًا كبيرًا من المال. ودفعت ثمن أجرة الغرفة لذلك الأحمق. كلما يرانـي يقول لـي تعـالي لنتزوج، أحمق وغبـي لعنـة الله عليه.
هـي تشتم كثيرًا، وتبلـع التبـغ فـي كل رشفة تنفثها من غليونها هؤلاء الفتيات يقلدن حياة الرجال في كل شيء، تلتفـت سـعاد للخلـف وتنـاغش(ميمـي). طبعًـا الاسـم المستعار لها لأن أباها سماها (سلمى) على اسم أمه.
كيف أمضيتِ وقتك مع ذلك الوسيم ؟ تبتسم بسخرية تجيبهـا : إنـه لجبـان ومحتـال لا يتناسـب مـع جسـدي الجميل.

ترد عليها سعاد كم أنتِ قبيحة أيتها الفتاة بعد كل معاشرة تقولين هذا الكلام.
متى تهتدين لرشدك وتتقين(الله) فيما تفعلين.
تقول لها ميمي : كم أنتم سخفاء وأغبياء.
لا أريد أن ندخل في نقاش وجدال يطول شرحه، ثم نمسك بشعر بعضنا البعض
اصمتي لعن الله سمكاتك، تقول سعاد تلعنين سمكاتي. ها هي تفرّ من مصيدتي، لا تريدني ولا تريد سنارتي. نحن تعساء يا قوم لا نعلم ما نريد.
عدت وتدخلت بين جدالهم وحوارهم الانفعالي وقلت لهم:
اسمعن أنتنّ، يا صبايا هناك حفلة ستقام الليلة على الشاطئ ويريدون فتيات للعمل معهم، هل تذهبن ؟
ترد كريستين: بكل تأكيد سنذهب نحن بحاجة لبعض النقود ولكن هل هناك شبانًا رائعين.
نضحك معًا من جديد ...وأقول لها:
أجل يوجد ما ترغبين به وزيادة.
ها وأنتِ يا سعاد! ردي.
هيا. تقول لنا: لا أعلم أريد أن أنام باكرًا لكي أخرج للصيد غدًا عند بزوغ الفجر، علّ وعسى (الله) يرزقني القليل من الصيد.
قالت كريستين: اتركيها هي لا تعرف من الحياة سوى العمل والشقاء والجلوس تحت أشعة الشمس، لتغمق بشرتها وتقضي على ما تبقى لديها من جمال وحيوية.

وفي أثناء لقائي معهم جاءني اتصال من المجلة التي أعمل بها. اضطرني عندها للمغادرة.
قلت لهم وأنا أنهض من مكاني وأودعهم، وأودع السيد(ذهب):
أعتذر منكم جميعًا لعدم قدرتي على مواصلة الحديث. أو الجلوس لوقت أطول، لأنني متعبة ولدي تقرير يجب أن أرسله للمجلة عبر الإيميل غدًا باكرًا .
اتجهت نحو باب المقهى وأنا أقول لهم: أراكما مساءً.
ثم اتجهت بنظري نحو السيد (ذهب).
قال لي: إذًا نجتمع ليلًا، هل لديك مانع؟
قلت له: لا أبدًا ..اتفقنا إذًا ...
حسنًا كما تريد. ظننت أني سأبقى معه ويحكي لي ما يشغل تفكيري. ولكن الاتصال الأخير الذي جاءني ورددت عليه غير الموقف كله. ودعتهم وافترقنا لنلتقي مرة أخرى.

عند المساء ذهبت إلى الحانة التي على الشاطئ، وجدت السيد(ذهب) في انتظاري ألقيت عليه التحية، ودعاني إلى الجلوس على طاولته.

وأنا ماأزال أجلس على الكرسي مر أحد من أصدقائه ووقف للتحدث معه وعرفني عليه. اسمه(سعيد)..يعملان معًا في ذات المصنع.

تقريبًا أنا أعرف جميع من في الحانة.

بحكم عملي أحاول أن أدردش مع الجميع وأعرف أخبارهم وقصصهم علني أستلهم شيئًا يفيدني في عملي، أغلب من في المنطقة يأتون إلى هذا المقهى هنا ليلاً ونهارًا.

وفي الليل يقصدونه أكثر، اسمه (هارموني) هذا المقهى يطل مباشرة على البحر، فيه خدمة للزبائن ممتازة، يقدم جميع أنواع الفطائر والطعام الشهي، من مختلف أنحاء العالم، يصنعونه بشكل ممتاز ومعظم العاملين هنا من أهل البلدة ورثوا فنون الطعام عن أسلافهم القدامى يقدمون أنواع السمك الطازج والمحمر والمشوي بجميع أنواعها والشوربات والحلويات والمقبلات والمشروبات والأطباق الساخنة.

ومن جديد بدأوا في تقديم بعض الأطعمة والأصناف التي تخص المهاجرين.

جاء النادل اسمه أمير هو أيضًا من المهاجرين.

قال لي : هل تشربين شيئًا الآن سيدتي؟

قلت لـه: لا، سنطلب أنـا والسيد ذهب بعد قليل ، ولكن انتظر قليلًا إلى أن ينهي السيد (ذهب) حديثـه الذي طـال بعض الشيء مع زميله.
جلسـت أنتظـر إلـى أن ينهـي الحـديث الـذي طـال بعـض الشـيء وسـرح فكري مـع مـوج البحـر الهـائج ، ومـازال السيد (ذهب) لم ينهِ حديثه مع من عطل أجواء اللقاء:
لا أعلم ما يصيبني اليوم، هل هو الاكتئاب؟
أم شيء ماحدث أعاد لـي القليل من الماضـي؟ كثيرًا مـا أدعي الزهايمر المؤقت. وينصحني كل الذين حولي أن أنسى الماضي والتفكير بإيجابية في الحياة.
كيـف أنسـى الماضـي وهـو يحمـل كـل ذكريـات الطفولـة والمراهقة وأبنائي الذين تركتهم خلفي وراء البحار، هل أنسـى الرحلـة المميتـة علـى ظهـر المركـب الـذي كـاد أن يغرق بنا أكثر من مرة بعرض البحر، بسبب الحمولـة الزائـدة والجشـع مـن قبـل تجـار البشـر الـذين كـان همهـم الوحيد هو جمع المال.
كيف أنسى الماضي بما فيه. ؟
نعم هي حقيقة، عندما أستيقظ صباحًا
ينتـابني للحظـات شـيء مـن الغموض،أحـاول اسـترجاع ذاكرتـي، أبـدأ فـي التسـاؤلات؟ والعـد! ! مـا لـديّ مـن ممتلكات أو أبناء أو أخوة أو أخوات أو أصدقاء.
يا ترى هل أنا عزباء أم أنني مازلت متزوجة ؟
وهل زوجي موجود أو أني ما أزال فتاة أعيش في منزل والدي.أو أنني أرملة... أو مطلقة. هل زوجي يحبني؟

أو أنه منشغل مع عشيقاته على الفضاء الأزرق. ؟
إنها ذاكرة السمك.
تبًا لتلك الحياة لم أعد أبحث بها عن شيء!
لا الشغف! ولا المتعة ولا الحب ولا السلطة ولا الجاه ولا المال ولا شيء! ولا حتى البحث عن الأصدقاء أو الرفقة!
أنا أعيش اليوم بما يتوفر لي من أحداث ولا أعلم ما هو السبب.
حقل البحث عن الأشياء الجميلة، والقبيحة، والسيئة، وكل شيء قد اختفى؟ قد أكون أراهن اليوم على السيد (ذهب) ليعيد لي شيئًا من شغف الحياة التي بهتت في عيني.
لا أعلم لماذا كل هذا الملل لا أشعر بالشبع أو الجوع! ولا الوقت ولا التواريخ!
حتى ذكرى زواجي وإنجابي لأطفالي لا أتذكرهم، وذكرى وفاة أمي وأبي ذكرتني بهم أختي الصغرى، هذا كله يضعني في حيرة من أمري.
لا أشعر بالحزن أو الكره لذكراهم . هل هو نوع من الخرف أو الزهايمر المؤقت ؟ أو اللامبالاة أو اليأس من الأشياء، كذلك الحلم بالماضي و المستقبل اختفى.
أسير في الشوارع وكل الأشياء من حولي جماد غير متحرك لا أعرف أين أسير. ألتقي بأشخاص أسماؤهم غير حاضرة في مخيلتي.

المجـاملات والتـأنق بالكلمـات لا تكـون حاضـرة فـي رأسي، و الحزن عندي غير موجود.
هـؤلاء البشـر يمـرون مـن أمـامي كـأنهم دمـى متحركـة يبتسمون يضحكون، وأحيانًا يغضبون لدرجة أن الخوف يتملكني من رأسي إلى مسقط قدمي.
أحاول جاهدة التأقلم معهم ، وكأنني في سيرك بهلواني، عبثًا من هذه الأيام التي أمر بها، ومن هذه الحالة التي تشـعرني فـي هـذا الكـون الفسـيح، إننـي فـي مشـفى للأمراض العقلية كل شيء فيه جنون. أحلامهم تزعجني لا شـيء جديـد فـي أفكـارهم، هـم فقـط دمـى تحـرك مشاعرهم المصالح والنفاق والكذب.
الواقع لا يغير شيئًا عندنا، نحن العرب خليط من مجتمع البـداوة نقلـد الأشـياء ونـدفن الأحقـاد فـي داخلنـا لوقـت الحاجة لها نعلنها على الملأ بكل وقاحة وسذاجة
حاولت أن أجمع الأشياء من الماضـي، وأتذكرها ولكن كان حقل النسيان أقوى مني بكثير يوجد بـه أنفـاق وردم كثيرة. حـاورتني جاهدة تلك الذاكرة الحمقاء، تلاعبت بي وتلاعبت بماضـي كنت أود أن أتذكر منـه لو القليل كمن يراهن على حصان خاسر
هل هذا جيد أم أنـه هـي كارثـة إنسـانية بالنسبة لـي بـأن أعيش الحياة منفصلة عن كل ما يدور حولي من الأشياء كأنني آلة للأكل فقط.
آكل وأنام وأستيقظ على يوم جديد. لا يوجد من الماضـي فيه أحد.

فأسأل نصفي الآخر،أين أضعته ، في زحمة التواريخ؟
أم زمان الثورات!!؟؟
وهل يحق لي السؤال عنه أم هو في سبات عميق؟
أم حق الميت الرحمة عليه ودفنه؟ هل من مجيب يا سادة. ؟
هل أضعت نصفي الآخر؟ أو أضعت النصفين؟
وما هو النصف الآخر أو النصفين؟
أين هو نصفي الآخر أصلاً؟!
حتى الأسئلة لم أعد بارعة بها!!
ففي نهاية كل هذه المحاورة، الصد والرد بيني وبين ذاكرتي المهترئة! أستعيدها كاملة في نهاية الأمر.
أستعيدها كاملة في نهاية الأمر، وأبدأ بالتخطيط ليوم جديد، وأحاول جاهدة أن أنسى أو أتناسى ما حدث معي يوم أمس أو في الماضي، وكأنني دخلت إلى عالم آخر لا علاقة له بالحاضر.
وأنا في المقهى توجد أمامي لافتة مكتوب عليها: ابتسم رعاك الله ذكرتني بيوم أمس عندما زرت جارتي الأرملة دورثي! التي أطلق عليها اسم صاحبة الرداء الأسود دائمًا مبتسمة، ابتسامة خفيفة تدل على طبع هادئ وراقٍ كلما تراني تدعوني لزيارتها فقررت مساء الأمس أن أزورها.
هي امرأة في عقدها الستين جميلة المبسم، قامتها طويلة ممشوقة، تضع صليبًا على صدرها، تقربه لأمام فمها تقبله وتقرأ عليه بضع الكلمات.

تجلس عند المساء على حافة شرفتها تمسك علبة الثقاب، تشعل سيجارة، تنفث دخان سجائرها بعمق شديد حتى تكاد تشعر أن هالة من السواد الكثيف تلف المكان.
أثار فضولي ثوبها الأسود وعبق دخانها الكثيف أردت أن أزيل تلك الهالة القاتمة وأعلم شيئًا عنها أو أخفف القليل من حزنها وألمها، أثارت فضولي بشدة رهيبة، فأنا حشرية بعض الشيء بسبب عملي الذي أقوم به في المجلة.
كلما أرى امرأة كبيرة في العمر، تنتابني لحظة ذهول ، أقول في داخلي؛ لو أن أمي مازالت على قيد الحياة، كنت الآن أجلس أمامها و أحدثها بكل ما يحدث معي، أو ترافقني لأي مكان تريد أن تزوره، ولكن الحظ السيء دائمًا يلازمني لقد عاجلتها المنية على عجل، ولم أسعد معها بتلك اللحظات.
كل امرأة أو غيرها من ذات العمر تشعرني بهذا الإحساس، بأن أتحدث معهم وكأنهم تعويض لما فقدته من مواصلة الحياة مع أمي أو أي امرأة أخرى من نفس جيل والدتي.
عندما ذهبت لزيارة صاحبة الرداء الأسود دورثي، استقبلتني بلباقتها الأنيقة ! رحبت وأهلت بي كثيرًا، بدأت بسرد الأحاديث عن ماضيها وحاضرها، وعن أولادها الأربعة، وزوجها الفقيد. كانت معلمة ابتدائي لثلاثين عامًا، ثم استلمت الإدارة كمديرة للمدرسة.

بدت السعادة تلف المكان من حديث وذكريات لها مع زوجها الفقيد، وكيف كان ذا مكانة مرموقة في المجتمع، كان ضابطًا كبيرًا في الجيش، وذا مركز كبير في الدولة.

هي من أصول إنجليزية ذكرت اسم المنطقة التي ولدت فيها في جنوب لندن لأكثر من مرة (ديركي)وسلسلة أجدادها. وبطولاتهم ومغامراتهم.

أخبرتني كيف تعرفت على زوجها عن طريق أخيها الأكبر الذي كان صديقًا له، في حفل تخرجه من الجامعة، ثم طلب يدها من والدها وتم الزواج، من حديث لحديث شعرت كم هي سعيدة. بتلك الوحدة بعدما تخلصت من كيد عشيقاته وكثرة سفره بحجة العمل.

تبتسم ابتسامة ساخرة، مبللة بخيبة أمل، من حياة أعطتها كل شيء من مال وأبناء ذات علم وثقافة عالية وصحة جيدة .

فأبناؤها يتصدرون مراكز عالية في عملهم، ولديهم ثروة جيدة، ورثتها عن زوجها، إلا أن القدر كان أعظم شأنًا منها أعطاها كل شيء إلا قلب رجل صادق يخلص لها في حياته.

تقول: رحمة الله عليه، كان قلبه كبير يعشق الفتيات الجميلات، وكل امرأة فاتنة وصغيرة تمر أمامه يتودد لها. تحكي وتصمت.

هكذا بادرت جارتي الجديدة، لزيارتي لها في مورلي عام ٢,١٩ تردّدت قليلاً، ولكنني حاولت أن تكون الزيارة قصيرة وللتعارف فقط مبدئيًّا، وفي الطريق إليها التقيت بصديقتي مارثا قلت لها أنا في طريقي لزيارة دورثي جارتي تلك صاحبة الرداء الأسود فأجابتني:
- بأن زوج الأرملة توفي قبل أسبوع، هي وحيدة الآن ومكتئبة جدًا .
امتعضت حينها، وكنت أنوي أن أستدير لأعود أدراجي حينها ولكن أكملت الطريق للتعزية؛ فأنا لا أطيق هذه المناسبات وأجدني ضائعةً لا أملك تعبيرًا لائقًا وصادقًا أقوله، إلاّ في حالات نادرة تنطق دموعي قبل كلماتي.
منزل دورثي عبارة عن شقة صغيرة وأنيقة، على الطراز الإنجليزي، كل ما فيها يزفر قدمًا؛ الكنبات الجلدية السوداء، الطاولة الوسطية غامقة اللون تتوسطها قازة كريستال جميلة تكتظّ بها ورود ملونة طازجة، لا رائحة لها.
كلّ ما في الصالة يوحي بعقود مضت منذ أن احتوتها جدران الشقة الصغيرة، حتى ستائر الدانتيلا البيضاء وشت بعمرها.
استقبلتنا الأرملة المسنّة بأناقتها ومكياجها الخفيف.
تذكّرت نساءنا والسواد يجلّلهن من الرأس حتى القدم...
صافحتني وعانقتني ببرودها الإنجليزي، والتصقت أنا بها بحرارة تعبيرًا عن حزني.

لـم أجـد مـا أقولـه سـوى: يؤسـفني سـماع خبـر وفـاة زوجك،مـا كانـت إلا ابتسـامة خفيفـة علـت وجههـا وهـي تشكرني...
أخـذت نظراتــي متلصّصــةً، تجـوب أرجــاء الصــالة الصـغيرة... پوسـتر كبيـر يحتـل الجـدر الخلفـي لمكـان جلوسـي، يتربـع بـداخلها بزهـوٍ وكبريـاء رجـل ضـخم الحجم...علمت لاحقًا أنـه والدها، فـي مواجهتي منضدة عليها تلفاز صـغير وتحتـه صـورة أخرى لحفيدها الذي علمت أثناء الحديث، أن اسمه توم، مسترخٍ بدلال، عيناه نصف مغمضتين.
ظل راداري يترصّد الجدران والسقف والزوايا، باحثًا عـن صـورة لهـا ولزوجهـا المرحـوم الـذي تـوفي قبـل أسـبوع، هامسـةً سـألت الأرملـة دورثـي التـي تجلـس ملاصقةً لي:
- أين صورك أنت و المرحوم؟..
جاهدت أن تخفي ضحكتها:
- الجدار الضيّق خلف الباب، أمامك...
صوّبت نظراتـي إليـه، حـائط لا يتجـاوز عرضـه ثلاثـين سنتيمترًا، تختبئ فيه بخجل صورة صـغيرة داخـل إطـارٍ غـامق لرجـل ثمـانيني ببـزة عسـكرية مليئـة بالأوسـمة والنياشين، عيناه منطفئتان تقبعـان تحت حـاجبين كثّين، وفم غائر تحت شارب أبيض كثيف.
شهقت دهشةً، أعادتني إلى صوابي نظراتها الحادة

لم أَجِد ما أواسي به العجوز الأرملة سوى ابتسامات بلهاء كاذبة،متبرّعةً.
انبرت دوروثي تقصّ عليّ أحزانها وعيونها ملأى بالدموع عن مرض زوجها وأيامه الأخيرة... كان نائمًا في حضنها وكيف لفظ أنفاسه الأخيرة.
بدأت أطبطب على يدها برفق وأواسيها، صوت غاضب، مستنكر هتف في صدري، زوجك المسكين، كيف وأين لفظ أنفاسه الأخيرة...؟ بعد كل ما حدثتني عن عشيقاته.
شربت قهوتي مع قطعة بسكويت صغيرة، وغادرت، اكتشفت في نهاية حديثي معها بأنها ليست حزينة على فقدانه، لأنه مات بل هي حزينة على عمر ضاع منها مع رجل زير نساء.
أثرت بي كثيرًا تلك السيدة وما دار من حديث بيننا، قلت في داخلي: تبًا لهذا القدر، يجمعنا مع أناس لا يحترمون مشاعرنا.
في أثناء عودتي من زيارتها إلى بيتنا، استحضرتني أمي من جديد بتلك اللحظات، كانت أمي امرأة ذكية جدًا وقوية، ولكن من شدة ما حدث لها من أحداث أصابتها أمراض كثيرة في الضغط والسكر والتوتر والقلق والجلطات الدماغية كحال معظم نسائنا في مجتمعنا العربي.
قررت أن لا أعيش الحياة التي عاشتها حددت عدد الأشخاص من حولي، ابتعدت عن الاستفزازات

والمشاحنات مع الجميع، أو الدخول في جدال، أو فتح أي مواضيع للنقاش، حاولت الاهتمام بشكلي الخارجي، واستحضار كريمات شد البشرة والرجيم المستمر وتناول الفيتامينات، كل هذا خوفًا من شيخوخة مبكرة تلم بجسدي الجميل، و كذلك ممارسة الرياضة في المنزل، فأنا أكره دخول النوادي، والعرق يتصبب من جسدي، والروائح النتنة، أو التملق والتكلف والمجاملات مع صاحبة النادي أو المشتركين وحالات الفضول التي تنتاب العالم.

ولكن ممارسة السباحة والغطس تعلمتها عندما انتقلت للعيش هنا على هذا الشاطئ فأنا بارعة في السباحة منذ كنت في دمشق بينما الغطس تعلمته عند انتقالي للعيش في مورلي.

عندما أشترك في أي نادٍ ، الكل يوجهون لي الأسئلة والاستفسارات مثل المحققين، كأنهم إذا علموا كم عدد أولادي أو ماذا أعمل سيغيرون شيئًا ما، أناس فضوليون، يستمتعون بحكايات بعضهم البعض.

رغم كل اهتمامي ببيتي و إتقاني وفناء نفسي مع العائلة والأولاد، أكتشف أن ذلك عمل صغير وتافه بنظر من حولي.

الجميع يتكلم عن إنجازاته وبطولاته العظيمة مع الحياة، وكأننا نساء خلقنا فقط للمغامرات والبطولات، وإثبات أننا أقوى من الرجال، الكل في صراع دائم مع من حوله في هذه الحياة التي نعيشها، مع العلم أن الرجال لا

يهتمون بكل هذه التفاهات والمحاولات التي نقوم بها، لأنه بفعل الذكورة والمثابرة له، منذ مئات السنين حصن نفسه بالقانون والعادات والتقاليد والنسب والحسب، وسجل كل شيء بأسمائهم من زوجة، وأولاد، وثروة، وحتى في تقسيم الميراث للذكر ضعف الأنثى.
وليس هذا فقط بل وجدوا لأنفسهم محامين للدفاع عنهم في كل الجلسات النسائية العدائية
إنه من الشيء المضحك المبكي والمقزز أن ترى امرأة من ذات جنسك تدافع عن حياة الرجال ومشاكل حياتهم البالية بالنيابة عنهم.
في نهاية حديثي، وجدالي مع ذاتي، استحضرت الماضي بكل تفاصيله، استبنت نقاط الضعف في علاقتي مع مشاعري، كان التخوين والشك والريبة والأنانية السمة الإضافية لحد الفراق بيني وبين أي شخص مرّ معي، لذا قررت أن أكتب عن كل ما يمر معي، وأكتب عن نفسي.
لدي أسئلة كثيرة تجول في عقلي:
لمَ تتمزق الكلمات في داخلنا كلما بدأنا نكتب عن حياتنا؟ تصعد الأحرف وتختنق الآهات، لتصبح لعنة مكبوتة لا تهتم بشيء، أجل كل نقاط الضعف التي أصابت علاقتي بزوجي، أو أي خلاف عائلي أو خلاف في علاقة قرابة مع جيران أو رفقة ، كان سببها عدم الحب وعدم الاحترام منذ البداية.

لا أعلم كيف استمر زواجي كل هذا الوقت بين الصد والرد.
من هو المتمسك بهذا الزواج اللعين الفاشل؟ من أجل من يكون غيابه مبرر لحياة زوجية منهارة؟ تنازلت لهُ عن حقوقي كاملة، أردت أن أتخلص من فراغ عاطفي أشعر به منذ زمن طويل.
عقد زواج مكتوب على الورق فقط دون أن يكون لنا حياة أسرية أو اجتماعية كاملة حتى الأولاد لم أستطع الاحتفاظ بهم، أجل بحكم المجتمع والقانون هم ملك له. وبالنهاية هم مسجلون في القيد المدني ودفتر العائلة باسمه.
حتى إذا حاولت السفر مع أولادي خارج البلد يجب أن يوافق زوجي على إذن السفر، أو أحد من أفراد عائلته الذكور، وكأنني لست من حمل بهم تسعة أشهر وتحملت آلام الولادة، وتعب الرضاعة لمدة عام ونصف وكأني مثل حيوان (التانكر) متعلق ابني أو ابنتي بصدري كأنه يسحب قلبي من مكانه، طبعًا مع حبي لفصيلة الحيوانات، لأنهم أصدق بمشاعرهم من حياة الكثير من البشر ، وبحسب قوانين مجتمعهم.
تعود ذاكرتي إلى سنين كنت مازلت في دمشق عندما حدث معي أمر جعل كل تراكمات السنين تأخذ قرار انفصالي عن زوجي
عند تمام الساعة الخامسة مساءً، بتوقيت مدينة دمشق في مقهى كليوبترا،في القصاع دخلت إلى المقهى رأيت

رجلًا في الستين من عمره يرتدي نظارة سوداء سميكة على وجهه، اقتربت منه وصافحته وجلست بالمقعد المقابل له على الطاولة
بدأ نظري يتجول في المكان لأتعرف على وجه أحد من الموجدين لألقي عليه التحية أو قد يكون هناك من أعرفه سابقًا وأخاف أن يراني مع ذلك العجوز ويخبر زوجي وحماتي بالأمر وتنطلق الشائعات كالعادة.
ثم ركزت ببصري نحو صاحب النظارة السوداء السميكة وقلت له: ماذا تريد مني؟
ولماذا أرسلت في طلبي ؟
أجابني بصوت منخفض وهادئ:
هل أطلب لك شيئًا تأكلينه، أو تريدين مشروبًا ؟
قالت له: لا... لا أريد أن أشرب شيئًا..
شكراً جزيلا لك.
ثم عاودت طرح السؤال عليه مرة أخرى من جديد:
ماذا تريد .. هيا أخبرني ؟
قال لي: لا شيء فقط أردت أن أتعرف عليك.
قلت له: هل تسخر مني، أرسلت في طلبي لأكثر من مرة، واتصلت بي وجعلتني أترك عملي بسرعة والآن تود التعرف عليّ ؟
حاولت أن أنهض من مكاني وأرحل ولكن ألقى بكفه الناعمة على يدي وقال لي: اجلسي للحظة من فضلك.
عاودت الجلوس وأنا ما تزال عيناي تجوب المكان وأتلفت حولي خوفًا من أن يكون أحد من أقربائي أو

معارف زوجي في المكان ويتعرف عليّ لأنني أعلم ظن حماتي بي وسوء طبع زوجي
ضحك صاحب النظارة السوداء السميكة وقال لي: في المرة القادمة عندما تريدين أن تلتقي بأحد ضعي خمارًا أسود على وجهك.
قلت: له هل أنت تسخر مني ؟
ألا تريد أن تخبرني ما تريد؟.
لمَ أرسلت في طلبي ؟ سأرحل حالًا .
أجابني: عندي لك طلب واحد فقط.
قلت: له وما هو ؟
قال لي: هل ترغبين أن تكوني معي ؟
قلت له: وهل نسيت أو لم يخبروك أنني متزوجة وعندي أطفال ؟
قال لي: وما علاقة زواجك وأطفالك بالأمر؟
هنا أصبح وجهي أصفر شاحبًا.
إذًا ماذا تريد ؟
قال لي: أنا أريدك أن تعملي معي في مكتبي في دبي...
ابتسمت له ابتسامة باهتة باستغراب شديد، وبدأت كل الأسئلة تتزاحم في رأسي
وكيف لي أن أسافر إلى دبي وأترك أطفالي وزوجي ؟
قال لي: هذه مشكلتك أنت.
إذا كنت ترغبين بالعمل معنا هذه الفرصة لك احصلي عليها
قلت له: سأفكر في الموضوع.

ابتسم لي.. ابتسامة فاترة.
قال لي: معك ساعتان فقط.
قلت لـه: بدهشـة واسـتغراب وارتفـع صـوتي قلـيلاً ... ساعتان ؟
أجابني: نعم ساعتان فقط لا غير.
قلت له: عندي مشاكل مادية عالقة من يحلها ؟ وممنوعة من السفر بسبب الحجز على اسمي وعلى كل ما أملك لسداد الدين الذي استلفته من البنك.
أجابني: أنا أحله لك في حال وافقتِ على العرض الذي قدمته لك وأسدد كل ديونك
المحامي الخاص عندي يحل لك كل أمورك وتسافرين غدًا السبت.
معك عشرون ساعة وتكونين في دبي وجميع أمورك تكون مرتبة، وتذكرة الطائرة جاهزة والحجز في الفندق الذي ستقيمين فيه.. أمسكت حقيبة يدي وحاولت أن أنهض.. قال لي: ساعتان فقط وأريد منك جوابًا نهائيًّا...
قلت له: عندي دين بقيمة مليون ونصف ليرة سورية
قال لي الرجل صاحب النظارة السوداء: .. لا عليك من كل ذلك سيكون في حسابك ضعفهم وراتب شهري لا بأس به وتضعين الرقم الذي تريدينه عند كتابة العقد.
ضحكت من جديد وأنا في صدمة هستيرية
لِمَ أنا... ؟ وما هو سبب كل هذا الكرم في لحظة واحدة ؟
قال لي: هذه فرصتك الوحيدة إما أن تقبلي بها أو ترفضي.

قلت: له ...حسنًا إذًا...
أخبرني عنك قليلاً ... وما طبيعة العمل الذي سأقوم به إذا وافقت على العرض والطلب الذي طلبته مني.
قال لي: أنا الدكتور فؤاد من بيروت محاضر في جامعة هارفرد و رجل أعمال
ليس لدي أبناء وغير متزوج ، وقد اخترت أن تكوني مديرة مكتبي في دبي لحسن سيرتك الذاتية في عملك الصحافي ستكونين الوجه الإعلامي لعملنا والترويج له.
أجبته: وكم ليلة تريدني أن أكون معك.. ؟ اطلبها من الآخر...
كرر كلامه دون أن يعلق على كلامي وردة فعلي الغاضبة.
قال لي: معك ساعتان فقط.. والوقت يمضي.
نظر في ساعته الذهبية الفاخرة وقال لي: لقد مضى على وقتك اثنا عشر دقيقة.
لاحظت أن الأمر يسير بشكل جدي جدًا ولكنه غير منطقي وليس موضوعي.
وأيضًا تلك الساعة في يده تشبه كثيرًا ساعة اليد التي كان يرتديها والدي رحمة الله عليه.
نهضت متجهة نحو بيت والدتي لأخبرها بما يحدث معي ولكن، كنت حائرة في أمري ومترددة والأفكار تتسارع في مخيلتي ...كيف أترك بيتي وزوجي وأطفالي الثلاث ومن يهتم بهم ؟

وكيف يمكن لي أن أترك عملي المريح الذي بقيت فيه منذ عشر سنوات.
كل ذلك وكيف سيسمح لي زوجي بالمغادرة أصلاً ؟
كل تلك الأسئلة كانت تدعوني للرفض والبقاء على وضعي وتسديد ديني من راتبي والاعتناء بزوجي وأبنائي أفضل من كل هذا المال والحياة الرفاهية الموجودة في دبي.
حاولت الاتصال بزوجي وجدت أن هاتفه مغلق... حاولت لأكثر من مرة ولا جدوى من ذلك، ثم خطر في بالي أن أخبر أمي أو أحدًا من أصدقائي ولكن الوقت يمر بسرعة رهيبة، والأفكار تتخبط في رأسي، وليس هناك أي جواب لكل ما أنا أمر به..
والوقت ليس بصالحي.
بعد مضي ساعتين وقبل انتهاء الوقت المحدد لي عدت إلى المقهى ووجدت ذات الرجل الستيني وكانت كل ملامحي وعقلي يقولون لي : أن أرفض العرض وأبقى على وضعي ولا أغامر بأي شيء مهما كان العرض قويًا ومغريًا.
عندما جلست على الطاولة التي أمامه، في حينها كنت متجاهلة كل من حولي ولا أشعر بمن يمرون أو يتكلمون فأنا الآن في موقف لا أحسد عليه.. قال لي السيد فؤاد:
هل فكرت جيدًا بالموضوع

قلت له: إني قبلت بالعرض الذي طلبته مني قبل ساعتين وأن كل شيء سيسير على ما يرام.
قال لي: إذًا سيرتب لك المحامي كل شيء سيتصل بك وتكون كل أمورك جاهزة في الموعد المحدد.
غادرت المقهى واتجهت نحو المنزل لأخبر زوجي وأبنائي بأنني سأغادرهم بعد أقل من ثماني عشرة ساعة وستتغير حياتهم ومصيرهم إلى الأبد ولكن لم أجد لا زوجي ولا أبنائي في البيت.
اتصلت بزوجي وجدت أن هاتفه المحمول مغلق، عاودت الاتصال به أكثر من مرة وكل مرة يكون خارج التغطية.
عاودت الاتصال به عند أمي عسى أن يكون ذهب مع أبنائه أيضًا إلى عند والدتي.
قالت لي أمي: أنه غير موجود ولم تره هو ولا الأولاد منذ زيارتنا لها آخر مرة قبل أسبوع.
عاودت الاتصال عند بيت أهل زوجي ردت عليّ حماتي.
قالت لي: بأنه منذ الظهيرة جلب الأطفال عندي وذهب مسرعًا، لأن لديه عمل مهم سيقوم به.
عندما أقفلت الخط مع والدة زوجي.... ملهم على الفور رن جرس هاتفه، قلت له: بعجلة أين أنت والأولاد لمَ لستم في البيت لماذا لم تخبرني أنك ستأخذهم معك عند والدتك ؟

قال لي ملهم: أنا عائد عند أهلي سأنام أنا والأولاد عند أمي لأن الوقت أصبح متأخرًا ولا أريد أن أزعج الأولاد آخر الليل لأن في الصباح لديهم مدرسة.
قلت له: الوقت مازال باكرًا على نومهم أحضرهم في الحال لقد اشتقت لكم كثيرًا، و هناك أيضًا أمر مهم سأعلمك به.
قال لي ملهم: حسنًا يا زوجتي الحبيبة سأدع الأولاد عند أمي، وسأحضر وحدي بعد أن أطمئن عليهم بأنهم في أسرتهم.
وستقوم أمي بالاهتمام بهم.
قلت له: أسرع إذًا... الموضوع الذي أريدك به مهم جدًا.
أجابني ملهم حالاً ربع ساعة وأكون عندك.
في حينها أذكر أنني انتظرته كثيرًا، ولم يحضر والوقت عندي كان يمر مرور السلحفاة.
تمددت على الكرسي الهزاز في غرفة المعيشة و ساعة المطبخ المعلقة أمامي تدق عقاربها كأنه سكين جزار يمرر الوقت من بين أضلعي، وأنا أحسب الوقت المتبقي لدي وكأنني سأفارق الحياة بعد لحظات.
تأخر زوجي في العودة للبيت.... اتصلت به من جديد الهاتف مغلق.
ثم عاودت الاتصال بأمه قالت: لي أنه نائم بجانب ابنه غيث.
أصابتني الصدمة من جديد ماذا أفعل هل أذهب دون وداعهم أو أن أخبرهم بالعرض المقدم لي ؟

لماذا كل هذه الأمور معاكسة معي ؟ سأنتظر حتى طلوع الشمس وأستقل أول سيارة أجرة وأذهب لبيت أهل ملهم وأخبرهم بالعرض المقدم لي....
سيكون الجميع مجتمعين وسيوفرون عليّ بعض الكلام والأسئلة في حينها ودون أن أشعر بشيء، غفوت قليلاً في مكاني على الكرسي الهزاز
من شدة التعب والإرهاق الذي أصابني منذ الصباح، استيقظت على صوت جرس الباب وظننت أن القادم هو ملهم،هرولت إلى الباب لأفتح الباب بسرعة له ولكن ليس هو ملهم، كان عامل النظافة وموعده تمام الساعة الثامنة صباحًا.
قلت له: لا يوجد اليوم عندنا زبالة.
انصرف عامل النظافة وأنا عاودت الاتصال من جديد بزوجي وما يزال هاتفه مغلق.
حملت حقيبتي وهاتفي المحمول بسرعة البرق، وأوقفت سيارة أجرة وذهب لبيت أهل زوجي، ولكن عند وصولي لم أجد أحدًا في المنزل، الكل ذهب لعمله وأم زوجي لا تفتح لي الباب،قلت في داخلي: أكيد ذهبت عند أحد من جيرانها تشرب القهوة أو عند أحد بناتها القريبة لها بالحي تزورهم في صبحيتها المعهودة كالعادة.
من جديد أصابني الإحباط واليأس وقلة الحيرة.
طائرة سفري في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا ولم يبق على موعد المحدد لي سوى ثلاث ساعات.. ماذا أفعل... ؟ هل أرفض العرض المقدم لي وأبقى في

وضعي المزري ووضعنا المادي السيء،أو أذهب للمدرسة وأودع أبنائي أم أعود للبيت وآخذ حقيبة سفري وأرحل دون وداع أحد منهم.
كل هذه الحيرة لا أجد لها أي حل... سوى الرفض العرض المقدم لي أو أقبل وتحل أزمتنا المالية.
ما هذا الحظ الذي أنا فيه الآن ؟
قلت من جديد في داخلي: ماذا أفعل الآن ؟
في حينها خطر في مخيلتي أن أذهب إلى المدرسة وأودع أبنائي ثم أستقل الطائرة وأسافر إلى عملي الجديد؟
قلت بيني وبين روحي: عندما يعرفون العرض المقدم لي سيغفرون كل شيء ويسامحونني على ما أفعله من أجلهم ثم صفنت قليلًا و أجبت نفسي: هل كل هذا من أجلهم أم هو من أجلي أنا وتسديد الدين الذي تسبب لي ملهم فيه بسبب مشاريعه الفاشلة.
أراد أن يفتح مصنعًا للجرارات الآلية وكان مشروعه فاشلًا والآن أنا من يتحمل تسديد الفواتير من راتبي لأن القرض باسمي أنا.
ذهبت إلى مدرسة الأولاد وودعتهم وغمرتهم بقوة وأنا أبكي وأوصي المدرسين بهم والاهتمام بصحتهم وتعليمهم.
ثم ذهبت للمنزل وأخذت حقيبة السفر من جانب خزانتي ووضعت فيها بعض الأشياء الصغيرة والضرورية لي وأنا أقول سأشتري كل شيء في دبي.

هنـاك توجـد لـديهم أسـواق خياليـة ومـاركـات عالميـة، حملت صـور أبنـائي وزوجـي وغـادرت مسـرعة عنـدما وصلت المطار وجدت رجلًا ينتظرني
قال لي: أنت السيدة أيلول....
أجبته: أجل أنا أيلول...
قـال لـي: سـأعرفك عـن نفسـي أنـا محـامي السـيد فـؤاد واسمي فرج.
سأرافقك في رحلتك إلى دبي لأكمل لك كل أمورك في المطـار وحتـى وصـولنا إلـى الفنـدق وتسـلمك عملـك الجديد.
قلت له: سعدت جدًا في التعرف بك.
وعنـد وصـولنا إلـى مكـان تسـليم جـوازات السـفر ظهـر زوجـي ملهـم فجـأة وهـو يبتسـم لـي ...ضـحكت كثيـرًا والدموع تغرق وجهي وكان بجانبه شقيقي سعيد
قلت لهم: كيف وصلتم إلى هنا ومن جاء بكم ؟
بدأ السيد فرج يضحك معهم ويقولون لي: لقد كانت هذه كلها تمثيلية عليك.
قـال ملهـم: أردنـا أن نختبـرك هـل تـرغبين بالمـال أو تختارين الحياة معنا أنا والأولاد ؟
فـي حينهـا أصـابني الإغمـاء...حملوني إلـى غرفـة الإسعاف في المطار وعندما استيقظت واستعدت وعيي و شيئًا من همتي، وقفت أمام زوجي وأخي وقلت لهم لم فعلتم ذلك ؟ لقد شعرت أنها لعبة منذ أن رأيت ساعة اليد

التي كانت بيد المدعو فؤاد هي ساعة أبي يا سعيد..أليس كذلك ؟

قال ملهم: إنه سامر صديقي هل تذكرينه؟ أردنا أن تكون كذبة نيسان.

قلت لهم:هل تصدقون الآن ماذا فعلتم بي

لقد حطمتم كل شيء جميل وغالٍ في داخلي، لقد مسحتم كل شيء جميل يتعلق بكم قبل هذا اليوم، طوال حياتي قضيته في العمل وأنا أنتقل من مكان لآخر أستيقظ باكرًا وأهتم بكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة لأكون الزوجة المحبة الصادقة التي تهتم بالعائلة، لقد تحملت شك وظن أمك والكلام السيئ في حقي.

كم تمنيت لو كانت لديّ الشجاعة لأعيش لنفسي ولا أعيش الحياة التي يتوقعها أو يريدها مني الآخرون، أو تريدها مني أنت يا زوجي المحترم، لقد أغرقتنا بالدين بسبب مشاريعك الفاشلة وسوء اختيارك لقراراتك حيث خسرت الكثير والكثير من الأشياء في عدم تحقيق أحلامي أو حتى نصفها كل ذلك بسبب أن حياتي الرخيصة معك كانت تتمركز بشكل أو بآخر لإرضاء الغير أو إرضائك أو إرضاء أمك المتعجرفة كل ذلك من أجل أن أحافظ على العائلة.

تمنيت أنني لو لم أعمل بجهد وبكل هذه المشقة في العمل والبيت وتدريس الأولاد كما كنت أعمل العمل الروتيني اليومي الممل المتعب والمرهق للروح والجسد.

حيث خسرت أشياء مهمة منها الرفقة والأصدقاء الذين كانوا سيخففون عني الكثير من التعب
تمنيت أن لو كانت لديّ الشجاعة لأعبّر عن مشاعري بوضوح، لكل من كان يتهمني بعدم الاهتمام بصحبة الأصدقاء أو الاهتمام بشكلي ومظهري ونفسيتي وصحتي المتعبة وذلك كله في تجنّب المصادمة مع الآخرين، تمنيت لو بقيت على اتصال مع أصدقائي وخصوصًا القدماء منهم الذين تعذّرت الظروف أن تجمعني بهم وتجديد الصداقة معهم، تمنيت أن أكون أكثر سعادة وأحقق أشيائي الخاصة بي.
اقتربت منهم وقلت: لهم هل تعلمون مقدار الألم والقهر والعذاب والقلق الذي تسببتم لي فيه ؟
أجل أيها الأغبياء الحياة عاهرة وأنتم من ترقصون معها، نظرت في وجوههم بحقد وألم وغادرت المكان ومن حينها بدأت تراكمات المشاكل تتعقد في علاقتي الزوجية.
ولكن اليوم أيها العالم الذكوري سأعلنها على الملأ، سأعيش في عالمي الخاص بعيدًا عن كل مسميات الحياة.
لمحت السيد ذهبًا قادمًا من بعيد فرحت من جديد، قلت في داخلي وأخيرًا جاء السيد (ذهب).كان مرتبكًا قليلًا وملامح الغضب والتلبك ظاهرة على وجهه.
سيدتي: سأغيب للحظات وأعود إليك. أعتذر منك حدث أمر طارئ في العمل لن أتأخر ، قلت له بكل استغراب:

حسنًا سأكون في انتظارك، جلست في مكاني على الطاولة وعدت من جديد لخيبة أملي.. يا حظي السيء!! عندها أصابني الإحباط، تردد على بالي سؤال: لِمَ دعاني للمجيء معه، ثم يغادر بسرعة ؟ بما أنه مشغول يا للحظ النحس، شيء محبط ومخيب للآمال، أشعر بدوار شديد و بأنني متعبة، كل الهلوسات التي تدور في رأسي الآن تقودني إلى الجنون تتركني أتصارع مع أفكاري تحطم كل ما بنيتهُ في لحظات. قد تكون موسيقا (الجاز) هي من تثير هذا الضجيج في داخلي، كل شيء في رأسي يرفض أن يتذكر شيئًاعن الماضي أو الطفولة، تبًا لها لا أريدها لماذا؟ أعود للتفكير بنفس الموضوع، ببساطة طفولتي بسيطة ساذجة لا تستحق حتى التحدث بها، كانت طفولة هادئة رغم معاناتي، في أشياء كثيرة، ولكن الشيء المبهج هو اللعب مع أبناء وبنات الحي والصراخ والضحك لأتفه الأمور وصنع طائرات الورق والكرتون واللعب بالحصى والدراجات الهوائية، أذكر ذات يوم حيث قاموا بترميم الطرقات وتزفيتها في البلدة وكيف كنا نلعب حولهم واللهب يتصاعد من المادة السوداء التي يضعونها على الطريق ونحن نحاول أن نمسك بها، كانت ذكريات رائعة لدرجة حفرت في أعماق الروح، وخاصة عندما نلتقي في مناسبات نستحضر تلك الطفولة والأوقات، وكأن الزمن عندها توقف في تلك المرحلة، حتى سنين ما بعد

الطفولة أو المراهقة كل شيء فيها تافه لا أستطيع أن أتكلم عنه.

هناك أفكار شيطانية كثيرة تتجول في رأسي ولكن ليس لدي المقدرة على أن أقوم بها، أحيانًا كثيرة أسأل روحي، لِمَ لم أتعلم على شرب المخدرات، أو الممنوعات، أو أبسطها الأرجيلة، أو التدخين أو حتى البيرة المصنوعة من الشعير وهي أبسط الأمور كل شيء متاح لي، لكن هناك شيء ما في داخلي يرفضها لدرجة الاشمئزاز، يشعرني ذاك الشخص (أمير) الذي يجلس أمامي أنني غبية وساذجة كان يجب أن أتعامل مع زوجي بطريقة أكثر جنسية وفحشاء حتى لا يخونني وينام مع تلك الحقيرة التى تعاشر الرجال الأنجاس، أكتشف بأنني غير بارعة في جذب الرجال، لا أعلم ما هو السبب.

تجاوزت كل هذه السنين من العمر، وهناك الكثير والكثير من الأمور أجهلها وأجهل التعامل معها، وها أنا أعترف أن هناك أشياء، لا أجد لها مبررات أو أسباب في شخصيتي وأجهل الكثير من الأمور في ذاتي، قد تكون معرفة الحقيقة تؤلم وتوجع القلب، ولكنها تكون نهاية المعاناة ورصاصة الرحمة على جسد الحقيقة في أغلب الأحيان الأسرار التي نخفيها، أو الأشياء التي نحتفظ بها، والتي تكون بالنسبة لنا هي سرنا الكبير أو العميق الذي لا يجوز لأحد أن يعلم به يضعنا في عرضة للابتزاز أو النصب والاحتيال من قبل أناس،

يصطادون في الماء العكر ، الصراحة والصدق وعدم محاولة أخبار أحد بأمور خاصة جدًا تضعنا يومًا ما بموقف محرج كي لا ينطبق عليه المثل الشعبي (صديق اليوم عدو الغد وعدو الأمس هو صديق اليوم). وفي كلا الحالتين هم أعداء ولكن تختلف نوع المصلحة كما أقول وأكرر بشكل دائم بداخلي المصلحة ثم المصلحة هي من تحرك القوة الكامنة داخلنا ككائنات تمشي على الأرض،

من عاداتي السيئة أنني لا أبحث في أغراض أحد، من أولادي أو زوجي، أو أقترب من شيء ليس ملكًا لي، أو أن أمسك بيدي هاتف أحدهم أو أبحث به مثل الكثير من الأشخاص المتطفلين.
حتى هواتف أولادي أو زوجي (المحترم) لا أتجرأ على البحث في هاتفه المحمول، قد تكون لدي قناعة أنهم مهما فعلوا أو أخفوا أسرارهم، سأعلم بها في نهاية الأمر وتكون حقيقة مكشوفة، وليس هناك داعٍ لأجعل من نفسي المحقق أو الأم المتطفلة التي تثير المشاكل في البيت من وراء أعمال أولادها المراهقين.
جميعنا مرت علينا أوقات في أعمارهم نغرم بالحب والعشق وكتابة الرسائل عليها قلوب حمراء، وسهام شوق تشعل من إحدى جنباتها النار كأنك في سيرك بهلواني وأول حرف من اسمه أو اسمها وعيون تدمع، هذه الأفعال الصبيانية البريئة أجمل شيء يمر به

الإنسان في حياته، حيث يكون هو سيد أو سيدة نفسيهما، والكون كله يدور في فلكيهما. وهما في الحقيقة في دوامة معرفة مستمرة إلى أن يقعوا في المشاكل وتبدأ تتوضح كل الأمور لديهم بشكل تدريجي و يبدأ الغربال، يغربل كل من مر معهم إلى أن يصلوا لعمر لا يجدون حولهم سوى أشباه أناس يمشون دون أن تراهم، حتى ثياب بناتي لا أحاول أن أرتدي منها شيئًا أو أستعمل حاجة هم يستعملوها، دائمًا هناك شيء يبعدني عن أي غرض ليس ملكًا لي، ولكن هذه المرة اكتشفت أسرار زوجي الخفية خلف شاشة جواله المحمول ولست أنا من اكتشفها إنما ابنتي الصغيرة هي من رأت المحادثات وأخبرتني عن كلامه الجميل مع الفتيات الساقطات، وكم هو كريم النفس وسخي المعشر.

يا إلهي كم هو مع هؤلاء الساقطات هادئ وشفاف وخلوق، أما معي وأمامي لو نطق بكلمتين في الكلمة الثالثة يدب شجار لا أعلم متى ينتهي، قرأت رسائله وصعقت عندما واجهته بالحقيقة، وإني علمت بأمر عشيقته، قال لي: وبكل وقاحة ودناءة رجل يهوى الجنس الرخيص، على الأقل هي أصغر منك سنًا وجميلة، هذا الوقح، جعلني في صدمة وذهول، تقطعت كل سبل الحديث والكلام بيننا كأننا غرباء لا نعرف بعضنا البعض، عندها توقف كل شيء يدور حولي، حتى النطق لم أعد أرغب به.... الآن عرفت لِمَ ينتهي الكلام بين الزوجين والكل يبقى في صمت رهيب.

فينقطع تواصل الحديث فيما بينهما،لأنه وبكل بساطة فالحقيقة كشفت كل النوايا الخبيثة والأسئلة التي تجر الكلام والحديث المباشر بين الاثنين حينها ينتهي. والمجاملات والكلام اللذيذ الذي ينعش الحياة الزوجية والأحلام والتخطيط للمستقبل يصبح بلا جدوى أو مغزى.

فلا يبقى هناك دافع للكلام أو النطق، كل المحادثات تبقى بلا نفع، حتى الوقت لم يبق له معنى، ولا يمر بوتيرة متسارعة، أو متلاحقة كما كان قبل معرفة الحدث.

في تلك الليلة عندما قرأت رسائله الغرامية مع فتاته السيئة...والقبيحة، أتذكر حينها مكثت مكاني وتسمرت كلوح الجليد.

وظلت عيناي تراقب عقارب الساعة المتوقفة عن الدوران، فقط في تلك اللحظات أدركت أن لا حديث يجمعنا، ولا رجفت قلب تثير المشاعر، ولا رعشة يد تشعل لهيب الشوق،ها هي الساعة متوقفة ولا تسير في الاتجاه المعاكس أو السريع كله متوقف عن الدوران حتى الأرض لم يتعاقب عليها الليل ولا النهار حينها.

إذًا هكذا كانت النهاية، توقفت العشرة التي جمعتنا لسنوات دون أي اعتبار لكرامتي أو مشاعري، هنا كانت نهاية حكايتنا انطفأت شعلت العشق وبرد جمرها، هكذا انتهى زواج دام لسنوات طويلة على أساس أنه متوازن ومحترم.

في تلك اللحظات، الصمت كان هو أبلغ من الكلام، في ذاكرة الليل، وضجيج الصمت، انتهى هذا الحب الجنوني لا أعلم كيف ، وفجأة وبدون جرس إنذار أو أي شعور مسبق بالحقد، تحول عشقي له إلى كراهية لا تطاق، شعور فظيع، فجأة تحولت الأشياء الجميلة التي تخصنا نحن الاثنين إلى ذكرى سوداء لا توصف لو تكلمت من هنا إلى بعد مئة سنة لن تعبر له عن مدى الكراهية التي تملأ قلبي من جهته، اكتشفت كيف يتلاعب بالكلمات ويخفي الأسرار، يتكلم بالسوء عني أمام الجميع وأمام أبنائي، يا له من رجل جبان، حتى كلمة جبان هي قليلة عليه، اللعنة عليه أينما كان وأينما حل، أضاع سنين عمري وخيب آمالي.

ظننت حين تقدم لخطبتي ووافق والدي ووالدتي على زواجنا، أننا سنكبر معًا ونعيل أنفسنا كل ما تقدمنا في العمر في المرض وفي الفرح وفي الحزن.

ولكن هذا الرجل أو الزوج الخائن وإن صح التعبير أكثر كان مدمرًا للأعصاب وخيبة أمل كبيرة لا تطاق ولا تحتمل.

إن الألم الذي أصابني لا يعلم بها إلا من يجلس بداخلي ويشعر بالوجع الذي أصابني، كانت معزوفة الورق ، وصوت أم كلثوم يصدح في رأسي (ضاع الحب ضاع) وقوافل حبات المطر، تضرب الزجاج على النافذة، كأنها أحجار غضب حركت الأرض بالبراكين والزلازل.

كـان مقطـع الخيانـة هـي الحلقـة الأخيـرة مـن مسلسـل العاشـقين، هكـذا حينهـا كـان لـي موعـد مـع ذاكـرة الليـل والنهار.
أتنهد مع أصحاب قصص مخموري الهم والحزن، أعلن نبأ وفاة القلوب المحطمة والمسجونين في قفص الاتهام والخيانة.
ومـن وقتهـا أصـبحت ممـن انضـموا إلـى قافلـة النـاس الفاشلين في حياتهم العاطفية والزوجية معًا.
هل حقًا نحن فاشلون أم هناك أشخاص حولنا يبذلون كل الجهد وكل مـا فـي وسـعهم لكـي نظهـر بمظهـر الفشـل ونتراجـع إلـى الـوراء رغـم كـل الجهـد والوقـت والعمـل على إصلاح الذات والنفس والجسد، أذكر حينها مكثت في مكاني لمدة ليلتين في جمود تـام كـأنني (دب قطبـي) يعيش في سبات شتوي عميق ينتظر قرب الربيع ليعود لوضعه الطبيعي.
لا أعلـم لـمَ نحـن البشـر، تنطبـق علينـا حيـاة الحيوانـات أحيانًـا، قـد يكونـون هـم أصـدق منـا فـي العواطـف والمشاعر.
بدأت أبحث عن طريق ينهي هذه المهزلـة السخيفة التـي ألمـت بـواقعي أنـا وأبنـائي وأسـرتي جميعـاً، هـل أتـرك البيـت وزوجـي وأولادي حينهـا وأذهـب لـدار أهلـي.؟ أم أبقـى معـه وأختـار طريقًـا آخـر أكثـر شـغفًا وتمـردًا علـى واقعـي، ويطلـق علـيّ اسـم الزوجـة الخائنـة التـي تخـون زوجها.

اتخذت قراري في نهاية الأمر أن هذا الرجل الذي أسماه القانون والمجتمع ونصبه زوجًا لي، أن انفصل عنه نهائيًّا وأبتعد عن أي استفزاز يحسب عليّ أمام أبنائي و عائلتي و مجتمعي.

فأنا لا..لا أريد الغوص في المجهول ولا أهوى هذه الأفعال الرديئة أو معاشرة الرجال، كل ما أنظر بوجه رجل ويفتح فاه أمامي، وتبان تركيبة أسنانه يشعرني بالقرف و الاشمئزاز يخيل إلي أنه سمك قرش إلا السيد ذهب لا أعلم لم أرغب بالتقرب منه إنه يشد انتباهي وفيه شيء مميز ممن التقيت بهم في حياتي.

أيعقل أن يكون متزوجًا أو مرتبطًا مع أحد من النساء.

للمرة الثانية أسأل روحي ذات السؤال عن حياة السيد (ذهب) الماضية، فأنا أنبذ كل من يقيم علاقة مع امرأة متزوجة أو رجل متزوج.

سألت ذات مرة زوجي السابق؛ الرجل الذي يقيم علاقة مع امرأة متزوجة لها عائلة وأولاد وحياة أسرية مستقرة!

هل يا ترى انقطعت كل النساء العازبات في الكون ليقضي على هذا الزواج المستقر ويؤدي إلى زعزعة هذه الأسرة ؟!

لا أريد أن أقول أنها سعيدة بالمطلق، ولكن مستقرة نوعًا ما وأيضًا سؤال للسيدات التي تقيم علاقة مع رجل متزوج له عائلة مستقرة، رغم كل المشاكل العائلية مع احتمال أن تحل مع مرور الوقت .. هل انقطع كل

الرجال العازبين أو العازفين عن الزواج! في هذا الكون حتى تتسبب في انهيار هذه الأسرة التي بنيت من سنين طويلة؟

أظن أن هناك خللًا أخلاقيًا رهيبًا في هذا المجتمع الذي يبنى على أساس الأنانية والمصالح الشخصية المريضة. أو أنهم يفضلون الجنس المبتذل الرخيص والمصالح الذاتية على العلاقات الأسرية أو الاجتماعية.

نظرت باتجاه النادل الذي يعمل في المقهى اسمه (أمير) جاء إلى بلغاريا مع والدته منذ أربعة أعوام واستقروا هنا في هذه المدينة مورلي، فهو صغير في السن وليس كبيرًا لم يستقبلوه في المدرسة حينها حتى يتعلم اللغة البلغارية

المسكين تعذب كثيرًا كي يتعلمها، فاختار أن يعيل نفسه ووالدته، وهو الآن يدرس ويعمل في آنٍ واحد.

قلت له: اسمع يا (أمير) اسكب لي قليلًا من ذلك المشروب وأشير له إلى الزجاجة الزرقاء، يخاطبني باستغراب شديد!! سيدتي هذا ثقيل عليك، سيتعبك بما أنك غير معتادة عليه.

قلت له: لا سأجربه،

يقول لي: حاضر سيدتي حسنًا كما تريدين. يضعه أمامي وأفكر فيه هل أرتشفه دفعة واحدة أم رشفة وراء رشفة أم أتركه ولا أحاول أن أضع نفسي في مأزق السكر والدوخان والإقياء، دائمًا أنا مترددة منذ انفصالي عن بيتي وزوجي وأولادي وعائلتي وبلدي أصبحت

أفكر كثيرًا قبل القدوم على أي عمل مهما كان صغيرًا وتافهًا أو كبيرًا الكل عندي أصبح سواء.
هيا هيا الأفكار تشابكت من جديد في رأسي اختلطت الأمور عندما بدأت أبحث عن الخطأ والصواب، هل أنا أسير في نفس الدرب والخطى التي رسمتها لي الحياة منذ الصغر، أم أن هناك شيئًا ما قد يتغير معي ؟
هل وجود السيد(ذهب)؟ هو من آثار هذا البركان الخامد، لا أعلم...!! الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أن الهالة الجميلة التى كنت أرسمها لكل هؤلاء البشر، أصبحت كفقاعة مطر، تنزلق تحت الأقدام في ليلة شتاء موحلة. مترجمة أفعالهم بكلمة قدر أو نصيب لكن في الحقيقة هي رغبة شديدة للمعرفة والخوض في المجهول لنعرف من نحن ومن نريد أن نكتشفه منهم.
ماذا نفعل لو كان كل الذي نعيشه أو نفكر به يكون حلمًا أو خيالًا أو هي مجرد صور وهمية نراها فقط عندما ننام.
الآن لا أريد أن أتذكر شيئًا من هؤلاء الحمقى الذين مروا معي أو سيمرون في حياتي، وخاصة رئيس التحرير، دائمًا في تدمر وعصبية مني، وتعليقه السخيف عما أكتبه له.
يقول لي: كل ما تكتبينه أفكارًا بدائية وبسيطة يقولها لي بكل سذاجة، ثم يحدث جدال طويل معه ومع رئيسة القلم، اسمها (تاتيانا) التي تثني على ما أكتبه لها من مواضيع موضوعية وأنيقة.

تقول لي: أن المواضيع التي تكتبينها هي واقعية بامتياز، فأشكرها في كل مرة تمتدح عملي لأنها تشعرني بالثقة فيما أكتب من أفكار متطورة تواكب الحدث والعصر في آنٍ واحد، لأننا بكل بساطة نحن في زمن تتغير الآراء والمواقف وقت الأزمات والحروب. عندها تطغى المصالح، كل شيء يختفي من علاقات اجتماعية أو عائلية أو حتى شخصية.

(تاتيانا) شابة راقية جدًا، في الثلاثينيات من العمر هي من بلدة ريفية في بلغاريا، تعرفت عليها عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي، رأت لي مقالًا منشورًا على صفحتي، دخلت على الخاص، وطلبت مني أن أنشر في جريدتها، كان هذا الأمر بالنسبة لي قفزة نوعية في مسيرة حياتي المهنية، سررت بالعرض الذي قدمته لي، قلبت كل موازين حياتي، نقلتني إلى عالم خاص فيه الكثير من المتعة والإثارة.

رغم جمالها الغربي الراقي هي أيضًا طيبة جدًا، توجد علاقة قرابة قوية بينها وبين مالك الجريدة، الجريدة التي أعمل بها هي صحيفة يومية تصدر كل يوم، تعنى بقضايا المرأة والأسرى والحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول العالم، وتصدر مجلة للمشاهير شهرية وأسبوعية تعنى بقضايا المرأة والأسرة، بينما ذلك النحيل العجوز رئيس التحرير، لا أعلم لِمَ لا أروقه، و يتجاهلني، وينبذ كل أفكاري ومعتقداتي قد أكون لست ممن يثيرون غرائزه الجنسية.

مازالت تلك الأصوات تذوي في رأسي، عندما كنت في دمشق، حبيبتي دمشق يا مدينة الجمال والعشاق، ورثت تاريخها من أسلافها، من ياسمينها الأبيض النقي، من بيوتها المتراصة بجانب بعضها البعض، من إطلالة مشارفها على ربوة بردى وقاسيون، شرفاتها متلاصقة كالبنيان، كل خاصرة فيها تسند خاصرة الأخرى، رغم الأزمات، ظلت شاهقة شامخة بجبالها البازلتية، الخصبة، بمياهها العذبة التي تسقي كل عابر سبيل. ومن كوم و كرم أشجارها وأرضها دائمة الخضرة، ومواسمها المتنوعة بين الصيف والشتاء.

إذا نظرنا من سفح جبل قاسيون نراها كقناديل البحر مضاءة من بيوتها العامرة بأهلها وأصحابها.

كل ضوء يسطع من نافدة أو شرفة تحكي حكايات وأسرار أصحابها، كيف يجتمعون عند المساء أمام شاشة التلفاز، يتهامسون يتسامرون تطلق أصوات الضحكات، من وراء طاولة الورق أو طاولة النرد، وشرب الشاي والأرجيلة، كل شيء جميل في دمشق، مطاعمها الشعبية، ورائحة الخبز، ومناقيش الزعتر والجبنة والشانكليش، ورائحة الشاورمة على السيخ، و أقراص الفلافل والفول والحمص الساخنة، في الأيام الشتوية، كلها تثير الشهية. هنا في الجهة الأخرى لدمشق حيث أنا مقيمة الآن لا شيء يشبهها سوى عدد الحكايات القادمة من أرض الجمال والحنان .

كم أشتاق لشوارعها وربوتها وربوعها، أحن إليها كحنيني لأبنائي.
فبالرغم من وجود كل شيء هنا، و متوفر من أطعمة من جميع أنحاء العالم إلا أنها أصبحت أكلة (المجدرة، أو المخلوطة) وهي أكلة البسطاء، من الأكلات المفضلة لأغلب العائلات المهاجرة، ليست لأنها ذات فائدة غذائية قيمة فقط بل لأنها تحمل الذكريات، وتقوي الرابط الخفي بين أرض الوطن وواقع الغربة في المهجر.
عندما كنت بدمشق كان بيتنا القديم في إحدى ضواحيها الريفية، مؤلف من طابقين؛ الطابق الأول للضيوف وأما الطابق الثاني كان غرف للنوم وغرفة معيشة لتناول الطعام، يوجد حوله أحواض من الزهور بجميع أنواعها من (الجوري والحبق وفم السمك والشب الظريف والياسمين وغيرها) كانت أمي تحب زراعة الزهور تشعرها بالسعادة.
في تلك الأوقات، عندما كنت طفلة صغيرة كانت الإشاعات تنتشر بسرعة بحكم أنها بلدة صغيرة والكل يعلم الأخبار وتتناقل بسرعة رهيبة بفضل النشطاء من المتطفلين، حينها حدثت أكثر من جريمة قتل، كلها كانت تحت غطاء و ظروف غامضة لكن باختلاف نوع الجريمة والغموض فيها فكلاهما كانت مروعة، تثير الرعب والإثارة بين الناس.
في إحدى البيوت البعيدة بين البساتين وجد رجل مقتول في سريره، بأثر طلق عيار ناري أطلق على رأسه.

على الفور اتصلوا بالأمن الجنائي والشرطة عثروا على رسالة انتحار قرب سريره، كيف أراد إنهاء حياته المجنونة، بأبسط الطرق، ولكن عشيقته كانت ضمن، المحتشدين، دست في جيب المحقق ورقة، تؤكد له عشقهُ للحياة وأنه مستحيل أن ينتحر، وأن هنالك من خطط لاغتياله، كان مكتوب في رسالة الانتحار، أنه لم يعد يستطيع العيش تحت تأثير الضغوطات اليومية وأدوية المهدئات. وكل التواقيع والصفقات التي يبرمها مع مدراء وهميين، لكسب المال والأعمال المشبوهة من المؤسسة التي كان مديرها.

على الفور فتح المحقق تحقيقًا في ملابسات الحادثة والجريمة الرهيبة التي تجعل من شخص لديه كل هذه الحياة الصاخبة ويفكر أن ينتحر، وكانت هذه الجريمة متلازمة مع جريمة قتل أخرى، وجدوا شابًا لا زال يدرس في الجامعة، مرمي من أعلى طابق في البناء العالي إلى أسفل بيت الدرج، المسكين كان وحيدًا لأمه، ضجت البلدة حينها على فراق هؤلاء الشبان، وسجلت كلا الجريمتان ضد مجهول غير أن الإشاعة تقول أن الشاب الثاني كان يحمل منظارًا، ويراقب النساء من خلف زجاج نافذة الشقة التي يسكن فيها في الطابق الأخير، فأحد الأزواج كشف أمره ، و قام برميه من الطابق الأخير إلى أسفل البناء وعلى أثرها مات الشاب، و حدث حادث سير مروع على إحدى الطرقات القريبة من المطار كان زوج جارتنا القريبة من دكان العم

(أبي هاني) يصطحب معه في سيارته الموظفة الجديدة بما أنه كان يوم الجمعة وهو يوم عطلة دارت الشبهات بينهما وأنتم جميعًا تعلمون كيف تنتشر الشائعات
ماذا كان يعلمها أو يريد منها في يوم إجازة و عطلة نهاية الأسبوع، و أين ؟على الطريق الدولي الخاص بالمسافرين قد يكون يعلمها السواقة، حيث وقع حادث السير الأليم الذي أودى بحياته، مات الرجل على الفور والفتاة نقلت للمشفى وظلت الزوجة مع طفليها تنعى حظها السيء وأسرار زوجها وعلاقاته السرية مع كثير من زميلاته في العمل، حيث ضجت البلدة بالمصائب المتلاحقة عليهم.
في ذلك الزمان كان عدد السكان قليل حينها كان جميعهم يجتمعون على الخير والشر، خاصة في وقت الأزمات والمصائب. ولكن في الآونة الأخيرة تغيرت هذه الأجواء كأن غيمة بؤس لفت البلاد، من شدة الأنانية التي طفت على واقعنا الاجتماعي. انقطعت العلاقات الاجتماعية والأسرية لقد أصاب تلك العقول الفجع، أكلتها أفكار الجوع والتشرد، الأيادي تشققت من كثرة العمل بالسخرية، حتى عيون الأطفال ذهب لونها، ذهب بريقها سقطت مع حكم المغفلين مع حكم الخونة، فجميع الناس من حولي أصبحت أشعر بأنهم أشباه أُناس باعوا التراب للأنجاس هم يستمتعون بها كما خطط لهم ذلك النمر و الشرير قائدهم النجس.

التاريخ يقول بأن كل المحاولات التي حاول أصحابها تنوير الشعوب تعرض لهم من كان همه خدمة الأسياد ومجموعة من العبيد ليستمر حال الاستغلال والضحك على الذقون من طرف شرذمة من المستفيدين أو من طرف من يحاول أن يستمر الحال على ما هو عليه الآن في جوف الصمت يصدح صوت خافت يئن من الجوع والعطش لتقوى أصوات النائمين تحت الأرض، صوت وراء صوت يجتمع الصدى، وتقوى الحناجر وترتفع المطالب، يقولون أننا جياع، يتضوّرون جوعًا فهم معتقلو الحروب، معتقلو الوحوش من نفس الجنس البشري، ولكنهم وحوش بوجوه قبيحة تتلون مع الدماء والسلاح تتلون مع صرخات الأمهات الثكالى مع أنين الأرحام بين الموت والحياة.

يعلو صوت الموسيقى في المقهى وأعود إلى الواقع.. ما هذا الحديث الطويل الذي دار بين السيد (ذهب) وصديقه؟. ووتر صفو اللقاء،واضطره للاعتذار مني وغادر على عجل، تستحضرني الذكريات من جديد، كانت أمي تصنع من كوب الطحين، حلوى لذيذة اسمها (عوامة) لا أعلم ما هو السبب في تسميتها بهذا الاسم.
دائمًا توقفني الأمثال الشعبية، فهي خلاصة تجربة الإنسان وملاحظاته المتراكمة عبر مئات السنين، والحب من أول نظرة أمر واقع غالبًا ما نصادف إنسانًا فيه شبه لشخص أحببناه، أمًا، أخًا، أبًا ، جارً، جارة، أستاذًا، أستاذة ، صورةً رسمناها في عقولنا وصدورنا، فنحب هذا الشبه، أو بلا مباشرة وبالعشرة نحب هذا الشخص كليًا، لذلك أنا أحببت هذه العوامات لأنها تشبه عوامة أمي ، والحكم النهائي لتذوق الطعم .
لذلك كلما أرى شيئًا ما أتذكر أمي، لما هي مطبوعة في ذاكرتي، رغم أنني كنت البنت الرابعة وتصنيفي الخامسة بعد إخوتي. أتذكر أنها كانت تنسانا وقت الغذاء أو العشاء أو الفطور من كثرة عددنا الكبير.
ينقذها والدي في هذا المجال، حيث يقوم بعدنا كل مرة لأن عددنا أحد عشر، هذا غير الأخ الأكبر الذي توفي بعد ولادته بثلاثة أيام.
عندما تزوجت أمي كانت صغيرة عمرها ثلاث عشرة سنة، تقول أنها نسيت أن ترضعه مات من الجوع و العطش، هكذا سمعت والدي يقول ذات يوم، فهي

معذورة في هذا الأمر، شيء كبير ومؤلم أن تدع فتاة صغيرة تتحمل مسؤولية زوج وأولاد وعائلة تهتم بالعادات والتقاليد.

أتذكرها كانت دائمًا مشغولة بالضيوف، والمناسبات الاجتماعية التقليدية، حيث كانت تنسى الاهتمام بنا، أوكلت تربيتنا لأختنا الكبرى، صاحبة العقد النفسية المريضة، رفض والدي تزويجها من أجل أن تساعد أمي في تربيتنا، وفي النهاية أصبحنا أخوة أعداء كل واحد منا يسير في درب مختلف عن الآخر، لا أعلم لِمَ نعتمد في حياتنا على الآخرين ثم نصاب بخيبات الأمل ونشعر بالغدر والخذلان.

جميع مشاكل البشر هو سوء الاختيار منذ البداية، إذا كان خيارك صحيحًا، سارت كل القصص على وتيرة الصح أما إذا كان الاختيار سيئًا منذ البداية اعلم جيدًا بأنك تسير إلى الهاوية؛ أجل، دائمًا أسأل عقلي: لمَ معظم الرجال والنساء في البداية يظهرون أمامي على أنهم ملائكة، ثم يتحولون إلى وحوش تتملكهم الغيرة والحسد، يظهرون بمظاهر التدين والوطنية وأنهم متحضرون يكرهون كل ما ورد، ولكن بالنهاية لهم نفس الطباع.

فأسأل نفس السؤال في كل مرة للرجال والنساء .. لِمَ على الفضاء الأزرق أو في الحفلات الموسيقية أو الحياة العامة جميع المدونين والناس ملائكة الرحمة؟ كلهم يقولون الكلام الجميل والشعر الراقي وكلام الحق والعبر والأخلاق الحميدة.

إذًا أين هم الشياطين المدمرون للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية وتفكك الأسرة؟
إذًا لمَ نسبة الطلاق مرتفعة؟ وأقسام الشرطة لا تخلو من الشكاوى والاتهامات؟ والسجون والمستشفيات لا تتسع من زحمة النزلاء! هل هي ازدواجية المعايير؟ أم نحن شعب منافق ندعي الأمان والسلام ونكن المصائب والرذائل لغيرنا؟.
من شدة ما تخبطت الأفكار في رأسي أدركت أن الإنسان هو عبد باسم الوطن والمال والحرية ليصبح في النهاية أسيرًا لأفكار ومعتقدات أناس مغفلين، يرتكبون الحماقات يدمرون الحضارات على أنهم حماة الديار، يقولون أننا نتميز عن الحيوانات بعقولنا، بينما الحيوانات لا تدمر غاباتها التي تعيش عليها، بل تحميها من المتسلقين، على عكس بني البشر المدمرين للحضارات.
كل الشكر لفصيلة الحيوانات التي تحاول الحفاظ على التوازن البيئي رغم شر البشرية الحمقاء، كم حضارة هدمت بفضل أطماع البشر ؟ هذه الأسئلة مغيبة في جيوب من ينتخبهم الشعب ويجعلون أنفسهم أسيادًا علينا يقودون السيارات الفاخرة ويمرون بجانب الفقراء ونسوا أن ثمن هذه البيوت والسيارات التي يجلسون فيها هي من الضرائب التي يدفعها المواطن من قوت أولاده.

نحن شعوب العالم الثالث لا نحتاج للكنائس ولا المساجد ولا دور العبادة التي ترهق الدولة بالملايين ثمن بنائها وتخرج بالنهاية السحرة والمشعوذين والإرهابيين
نحن نحتاح لمستشفيات مجانية ومدارس بالمجان وحدائق ترفيهية، وبطاقة تسوق كلما اشتهت نفسك شيئًا من طعام أم لباس يكون في مقدورنا أن ندخل أي مطعم نأكل ونرتدي ما تشتهيه أجسادنا.
نحن لا نحتاج لمحاضرات مدراء الجامعات والمدارس عن التربية والأخلاق نحن نحتاج للمازوت في مدافئ الصفوف حتى لا يتغيب أبناؤنا عن المدرسة بحجة البرد أو العطش لأن الماء ملوث أو الحر شديد لأنه لا يوجد بها مكيفات للتبريد.
نحن لا نحتاج للشرطة إذا كان الحق يتعلمه الطفل منذ الصغر كيف لا يكذب أو لا يسرق أو لا يغتصب إذا كانت كل مقدرات وخيرات الطبيعة متوفرة لديه، نحن نحتاج لعقول تثق بالإنسان وبناء مجتمع متضامن وغير أناني أو مرتشٍ أو لص.
كم حضارة هدمت بفعل الإنسان وكم من أخٍ قتل أخاه بفعل الأنانية والطمع، ثم أدركت وعدت إلى وعيي، أن الفلسفة الزائدة للحياة هي من تربك أفكارنا وتضع العراقيل أمامنا، عندما تتفتح البصيرة وترى كل شيء على حقيقته لن تخسر من حولك فقط، وتعيش في عزلة، بل تخسر أيضًا ذاتك لأنك في صراع دائم معها.

لا شيء أبشع ولا أقبح من حسود أوحقود يتربص لك بالعداء بهيئة أخٍ أو صديق أو حبيب أو قريب أو رئيس عمل أو أحد تظن أنه جزء من حياتك اليومية و أنك تلتقي به باستمرار.

منذ يومين دار جدال حاد، بيني وبين رئيس التحرير المتكبر العجوز، يريدني أن أنتقد الواقع، بكل مقوماته وليس فقط أن أكتب قصصًا قصيرة عن حوادث وأخبار، أو أناقش بعض المعلومات، شعرت حينها، كأنه تهديد لي بالطرد من عملي، قلت له: عن ماذا تريدني أن أكتب ؟

قال لي: تحدثي عما يعرض على شاشات التلفاز عن الفرق بين الزمن الماضي والحاضر وتناقضات الحياة.

لا أدري ما يريده بالضبط، فالكل يتحدث عن الزمن القديم وجماله، أين هو وما موقعه وتاريخه؟ ومن الفيلسوف الذي عاشه وكان سعيدًا به؟ هل هو زمان الاحتلال العثماني لوطننا العربي قرابة أربعمئة عام؟ واغتصاب أجزاء من أرضنا؟ أو جريمة الأرمن؟ أم زمن الاحتلال الفرنسي أو البريطاني أو الإيطالي لوطننا؟ أم أنه زمن (سفر برلك)زمن المجاعة أو زمن النكبة في فلسطين؟ أم أنكم تتحدثون عن زمان الانقلابات العسكرية والتخوين والمؤامرة والإقطاعيين والبرجوازية؟ أو عن زمان الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وتشريد شعب كامل باسم العرق والقوميات والتهديد والوعيد ؟

عن أى زمان يتحدثون؟ هل هذا هو الزمان الجميل، لكل زمان له جماله ومساوئه، قد نكون نتحدث في وقت كنا ما نزال أولادًا وأطفالًا وفتية صغارًا زمن الطفولة والبراءة نعيش في الأحلام واللعب مع من في أعمارنا لا نشعر بعناء وشقاء من كان يدير أمورنا، إلا وهو الأب والأم؟! ولكن عندما كبرنا وأصبحنا في سن الرشد، وبدأنا في الاعتماد علي ذاتنا في العيش والعمل، والاستقلال اختلفت الأمور من حولنا وأصبحت ذكريات الطفولة هي الزمن الجميل في حياتنا، نحن الآن في الزمن هذا الذي نعيشه حاليً أجمل وأصدق وأنبل ألف مرة من الزمن الماضي المعتمد على الحروب.

الآن الشاب أو الفتاة من هذا الجيل، حتى لو لا يحمل شهادات جامعية يستطيع أن يعمل ويعيل نفسه ومن حوله ويستخدم أساليب التكنولوجيا باستثناء بعض الذين يدمنون على أعمال السوء معظم هذا الجيل الجديد يهتم بنظافته الشخصية ويستخدم الموضة في لباسه، ويحلم أن يطور من مقدراته، أما الزمن القديم، فكل همهم الزواج والإنجاب والثأر وكيف فلان يسطو على أرض علان، إذا قارنا حياتنا بما سبق نحن نعيش في الجنة عما كان يعيشه أجدادنا من فقر وجوع وحرمان، نحن نعيش رفاهية التكنولوجيا والعولمة، فالرجاء الخاص من الذين يعارضون حياة هذه الأيام وزماننا ويذكرنا بزمانه الماضي السعيد فقط يتذكر التاريخ ويسعد به.

نحن في مجتمعنا العربي في زمننا الماضي إذا المرأة كتبت قصصًا عن الحب أو الخيال فهي عاشقة ومنحرفة وإذا تبرجت ووضعت مكياجًا وإكسسوارات وكسرت روتين الحياة اليومية لها، هي مجنونة ومهبولة وأصبحت أمًا لأولاد، يتساءلون لماذا تفعل ذلك ؟ إذا جلست في مقهى أو مطعم إذًا هي تنتظر أحدًا، و إذا جلست على حافة نافذتها في منتصف الليل هي تتهامس مع أحد رغم أنهُ جفاها النوم وأقلقها الناموس، المرأة في مجتمعنا يجب أن تتستر وتحتشم خوفًا من الوحوش الضارية التى تنتظرها في خارج المنزل ، المرأة في مجتمعنا تتزوج لأنها أصبحت عانسًا ويجب أن تركب بقطار عش الزوجية خوفًا من مجتمع ينظر إليها أنها حثالة لا أحد يهتم بها، وهي معزولة، ومنتهكة حقوقها وسترضى بأي شخص يتقدم لخطبتها من غير قناعة.

المرأة في مجتمعنا تعمل خارج المنزل ليست لأنه مجتمع متحرر بل لتساعد المتحول الفضائي الذي تزوجته لأنه فقير ولا يستطيع أن يتكفل مصاريف نفسه كيف سيتكفل أن يصرف على أم وأولادها؟

المرأة العربية وجدت نفسها في هذا المجتمع رغمًا عنها مقيدة بالعادات والتقاليد لأنه وبكل بساطة ليس هناك لا قوانين ولا أحكام تنصفها حتى إذا وجد قانون يأخذ لها حقها يخترعون له نصوصًا وأحكامًا ملحقاتٍ مخفية تحرمها من هذا الحق، وأنا أقول أن الرجل الشرقي ، ليس خطأه أنه متزمت وإنما الخطأ بنا نحن الأمهات

والنساء من نربي هذه العقول يجب أن نسعى إلى تحرير المرأة قبل الرجل لأنها هي من تلد وتربي وتصنع الذكور والعقول و ذلك ببناء مدارس ثقافية أكثر اندماجًا بين الذكور والإناث، وتربية الأم لأبنائها لا فرق فيما بينهم، وجعلهم متساوين في كل شيء قبل أن نضع القوانين، قبل أن نسير في مظاهرات كاذبة وحمل اللافتات للمساواة مع الرجل.

ننمي عقول الإناث الأمهات ونطالبهن بحقوق الأولاد والرجال سويًا لا فرق بينهم.

نبتعد في مسلسلاتنا الدرامية على تكريس مدى الجهل والتخلف الذي يعيشه الكتاب والمخرجيين وبتأكيدهم للمشاهد العربي بأن السحر والشعوذة هي من يحرك الأشياء من حولنا بينما أن علم النفس والاجتماع يؤكد: أنه لا يتحرك شيء من مكانه إلى مكان آخر إلا بفعل فاعل، أي أن هؤلاء المخرجين والكتاب يؤكدون للمشاهد العربي أن يذهبوا للمشعوذين والسحرة لحل مشاكلهم وعقدهم النفسية بدلًا من الذهاب للمختص النفسي لحل أزمته، هذا هو المثقف العربي وأغلب الكتاب يكرسون أفكار الشعوذة والسحر ويعودون بنا لعصر الانحطاط رغم أن العلم والتكنولوجيا استوطن الفضاء ونحن ما نزال نتخيل أمورًا لا تحدث إلا عند الإرهاق والتعب وتحتاج لمعالجين نفسيين لتهدئتها، هناك في مجتمعنا ملايين الناس لا تقرأ ولا تكتب لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية أو ظروف

حـرب، وليسـت متعلمـة ومعظـم أوقاتهـا تقضـيها أمـام شاشـة التلفـاز وتستمع لصـوت الإذاعـة والتلفـاز، وحتـى الـذين يقـرأون هـل نكـرس لهـم أفكـار السـحر والشـعوذة والجـن مقابـل أفكـار مـدّعي العلـم والثقافـة وحـاملي الشهادات الجامعية.

نعم للأسف نحن أمام مثقف عربي جاهل ومتخلف رغم شهاداته العلمية وللأسف أنها تكون من أشهر جامعات العالم.

كفانا تخلفًا ولعبًا بالعقول.

عندما انتهيت من كتابة التقرير الذي طلبه مني رئيس التحرير، جاءني الرد منه بالرفض، حاولت مناقشته ولكنه كان غاضبًا كثيرًا ، ويبدو أنني سأطرد من عملي.

وأخيرًا ...ها..هنّ الفتيات قد جئنَ ..

لماذا كل هذا التأخير ؟

لمَ أنتنّ مرتبكات، جاوبتني (أصالة):

لا أريد أن أعمل في هذه الليلة! مزاجي سيء، وأشعر أنني مرهقة، أباغتها باستهزاء ومسخرة: وأنتن أيضًا مرهقات وجاءتكنّ نوبة الكسل؟

تقول صديقتي الصهباء الجميلة (كرستين):

نعم .. لن نعمل الليلة، سنجلس وكأننا بشر محترمون وأسياد هذه الليلة.

قلت لهن: لحظة... أتصل مع صاحب العمل وأعتذر له عن عدم العمل معه في هذه الليلة، إذًا سنحتفل الليلة بنخب الصداقة والتعارف والإهداءات والتهاني

والتبريكات بين الفاتنات، نخب الأيام القادمة....الجميلة، نخب السيدات العاطلات عن العمل وتعالى صوت ضحكاتنا.
أهمس لهن بصوت منخفض: سأعرفكنّ الليلة على شخص جميل جدًا.
قلن جميعًا: ..الليلة.
قلت لهن: طبعًا، وأنا أقصد بكل تأكيد السيد (ذهبًا).
نضحك جميعنا بصوت مرتفع وكأن المكان خالٍ من حولنا ولا يوجد أحد في المكان. يبدأ الضحك والفرفشة والنكت
اسمعن، أقول لهن: ...يا حلوات؛ نحن هنا نثير غرائز الرجال، انظرن حولكنَ سيلتهموننا بعد قليل مثل السمك.
تقول (سعاد) وهي تضحك: عدتِ إلى سمكاتي لعنك (الله).
ها يا أنت تشير بيدها لمنسق الموسيقى في الحانة بصوتها المرتفع الجهوري.
ضع لنا موسيقى جميلة سنرقص ونحتفل حتى الصباح...تصعد (مايا)على الطاولة تشد منديل النادل من يده وتضعه على خصرها وتبدأ بالرقص ثم يأتي رجل من بين الحضور ويشدها من يدها.
يريد أن يغازلها ويرقص معها، هي جميلة وجذابة فيها الجمال الشرقي من والدها، والكثير من جمال أمها.
تزوج أبوها من والدتها عندما سافر من سورية إلى فرنسا في بعثة دراسية، ثم جاء بهما إلى مدينته في

شرق التل، ولكن أمها لم تستطع التأقلم مع الوضع الاجتماعي الشرقي، مكثت قرابة عام ونصف ثم غادرت إلى بلدها فرنسا بعد صراع مرير مع والدها، لأنه رفض أن يترك لها (مايا).
لقد تربت على يد أبيها وزوجته الجديدة، التي اختارته له جدتها.
قال لها: لا أريد أن تربي ابنتي في مجتمع فيه الكثير من الأغلاط و التناقضات!!
إذا ...لم تزوجها وهو يعلم الفرق الشاسع بين هذه المجتمعات الغربية والشرقية من عادات وتقاليد واختلاف اللغة والدين وكل شيء.
أجل هؤلاء الرجال يريدون التفاخر أمام عالمهم القروي في القرى البعيدة عن المدينة، على أنهم متحضرون ومتمدنون ومختلفون عن غيرهم من أبناء بلداتهم.
ثم يقعون في المشاكل الزوجية والعائلية وتنتهي قصصهم بالانفصال ويكون الضحية هم الأطفال فهذا هو سر تخلفهم.
أقول لها: هيا(مايا) تعالي إلى هنا. اتركيه وأنت يا رجل ابتعد عنها و اذهب من هنا.
انظر إليها ...ما بالك يا فتاة اجلسي بجانبي؟
ثم أقول لهن: يا حلوات، ستحدث مشكلة إذا بقينا هنا دعونا نذهب إلى الشاطئ.
قلنَ جميعًا: حسنًا...نهضنا من أماكننا وحاسبت كل واحدة منا عن نفسها، هكذا هو الاتفاق لأننا لا نملك

النقود الكافية. والمعيشة باهظة الثمن في هذه المدينة الجامحة الصاخبة بأعداد السواح والمهاجرين والسكان الأصليين.
هنا الكل يعمل ويعتمد على جهده في تحسين وضعه.
دعوْتُ عبير...و سميحة...وشفيقة أيضًا للذهاب معنا إلى الشاطئ هنّ نساء أكبر منا في العمر، ولكن مازال الشباب والحيوية يداعب وجوههن السمحة.
يوجد مقاعد وطاولات مجانية على طول الشط قلت لكنَّ سابقًا بأن المحافظ أمر بتشييدها من أجل الانتخابات البرلمانية.
لم نجلس على الطاولات ولكن افترشنا شرشفًا أحضرته سعاد معها، هو دائمًا معها في حقيبتها، جلسنا على شكل مستطيل باتجاه موج البحر، أعيننا تتأمل الموج الهائج القادم من المحيط الأطلسي ورياح الخريف العليل.
اسمعنني جيدًا رفيقاتي ... ما رأيكن أن أشعل لكنَّ بعضًا من عيدان الخشب؟
قالت(مايا) وأنا معي (الأرجيلة) في حقيبتي، وأيضًا سعاد معها واحدة، إذًا يا جميلات هذه الليلة لنا سنتحدث حتى طلوع الفجر، ثم أقول لهنَّ: لا تبدأن في الكلام حتى أنتهي من إشعال الحطب أفهمتنّ؟ تقول جميعهنّ: ...نعم.... نعم فهمنا جيدًا يا صاحبة الأفكار الرائعة، وأنا أشعل النار لاحظت أن السيدة (شفيقة) كتبت على الرمل امرأة عظيمة وتنهدت من أعماق قلبها كأنها غريق استعاد الحياة من جديد قلت لها: ما معناها ؟

قالت لنا: أحيانًا، الغربة في الأوطان تكون أشد قسوة من الغربة في المهجر.
قالت لي: كم أنتِ امرأة عظيمة، دائمًا أسمعها من زوجي في كل مناسبة، إلى أن وجدت نفسي مرغمة على قبول أي شيء منه، نسيت نفسي في معترك الحياة، بين تربية الأبناء، واللحاق باكرًا لمقر عملي مسرعة بشكل جنوني، كي لا تفوتني الحافلة، وأضطر إلى ركوب حافلة أخرى على حسابي الخاص، وأنا عائدة من العمل أنزل عند سوق الخضار البعيد عن منزلي قرابة أربع حارات لأن الخضرة واللحوم هناك أرخص بكثير مما يباع في حيّنا، وأحملها كل تلك المسافة لتوفير بعض النقود وأطعم زوجي وأبنائي أطيب وأشهى المأكولات من الطعام.
كنت أعمل بمصنع للأحذية الجلدية الطبية، براتب قليل جدًا، لا يكفي ثمن عشاء فاخر لصاحب المصنع العجوز، مع سكرتيرته الصغيرة السن، تحملت كل شيء ثمنًا لهذه الكلمةالجميلة أنت امرأة عظيمة، وبعد مضي سنوات من العمر الضائع، اكتشفت أن هذا المنزل الجميل الذي بنيتهُ بتجاعيد جفني ،وعدد عذاب خصلات الشيب في رأسي، وآلام المفاصل في ركبتي أنه ركن جامد منهار لا يتسع لصراخ ولا نحيب السنين التي مضت.
استسلمت، وبلعت مصيبتي، بعد كل هذا الصبر والعمر البخس، وجدال بين صد ورد، ليس هنالك أي جواب

يقنعني لما فعل ذلك بي، غير صوت واحد ظل يصدح برأسي على مدار أربع وعشرين ساعة: (إنني غبية). أجل أنا امرأة (غبية)جدًا جدًا بِمَ كنت أفكر حينها، لِمَ نتخيل دائمًا أو نصنع شخصيات لأشخاص مغايرة لشخصيتهم الحقيقية.

لقد أثبت لي المثل الشعبي القائل: (قَلُّو بتعرفو؟ قَلّو: إي.قال: مْجربو قلُّو: لأ. قلُّو: لكان شو بعرفك فيه؟)

وأنا ينطبق عليّ هذا المثل، كيف سأعرف أنه خسيس ونذل؟ طوال الوقت يشتكي، المرض، والتعب، وقليل إرداة، و لا يستطيع عمل أي شيء لأنه مسكين ودرويش.

بعد انتهاء حفل زفاف ولدي من ابنة جارنا (أبي صالح) التي طالت خطبته منها، قرابة أربع سنوات حتى استطاع تأمين ثمن (المهر) والعفش ومصاريف العرس،قال زوجي لي: عندي لك مفاجأة يا حبيبتي العظيمة شفيقة.

قلت له:مفاجأة؛ منذ متى وأنت تخبئ لي مفاجآت منذ زمن طويل، من وقت زواجنا لم تفاجئني ولا مرة بشيء، ماذا حدث حتى تغيرت الأحوال معك؟ هو لا يتذكر عيد زواجنا... ولا أعياد الميلاد، ولا حتى عيد الحب، ولا المناسبات الخاصة أو العامة. ولا يشتكي من شيء، يأكل كل ما أطبخه له، وفي كل مرة يقول لي: تسلم إيدك يا جميلة الجميلات، حتى ثيابه الداخلية وسراويله أنا أشتريها له من المحل المقابل لمنزلي، لولا

صلة القرابة بيني وبين زوجة صاحب المحل، ومعرفتها بوضعي المادي السيء لن تصبر كل هذا الوقت على طول المدة لأسدد لها ثمن هذا الدين.
كان هادئًا وصبورًا ، من يراه لا يتوقع منه
كل هذا الخبث... أو أن يتصرف هكذا معي جاء لخطبتي عندما كنت في الثانوية أصر والدي على تزويجي له. يقول أبي: البنت مكانها في بيت زوجها"رحمة الله عليك يا أبي" أضعت سنين عمري مع رجل بخس وأناني، حتى أمي لا كلام لها بعد كلام أبي ...رحمة الله عليهما، فعلًت كان لي أكبر مفاجأة في حياتي.
تصرفه الأخير أتى بنهاية كل شيء كنت أتوقعه منه، صدمته لي جعلتني كفرس جدي المتهالك،لا تنقصه سوى رصاصة واحدة في رأسه، لتنهي عذابه بموته بشكل سريع، شعرت أنني أجلس على كرسي متحرك، لا أقوى بها على المشي أو الحركة.
قال لي زوجي : حبيبتي العظيمة (شفيقة)
هذه(هناء) زوجتي الجديدة، صديقتك العزيزة، أنتما تعرفان بعضكما جيدًا وأنتما صديقتان.
قلت له : أجل أعرفها بشكل جيد،صديقتك القديمة الجميلة اللعوب، وليست صديقتي أنا، هي تصغره بعشرين عامًا تعرف عليها عند أحد أصدقائه القدامى عرفني بها مرة عندما كنا بزيارة للمباركة لهم بمولودهم (سامر).

كم أنتي امرأة عظيمة يا (شفيقة).
اقترب مني وضمني إلى صدره، وبدأ يتلمس رأسي، ويمسك خصلات شعري.
أول مرة يقوم بمداعبة خصلات شعري المتعبة، حبيبتي لقد صبرتِ معي على الفقر والتعب والهم، والآن أنصحك بأن ترتاحي، هناك من يريد أن يكمل عنك.
فأنا بحاجة لأشياء، صعب جدًا عليك أن تؤديها لي، عملك المتعب، في مصنع الأحذية، وتلبية حاجات البيت والأولاد.
فأنت طوال الوقت مشغولة ومنهكة بأشياء كثيرة، والآن زادت مسؤولياتك أصبح لديك! (كنة جديدة) وسيصبح لديك أحفاد، يريدون هتمامًا منك بهم.
قلت له في داخلي: فظيع هذا الرجل، يبرر لنفسه كل شيء، ما علاقتي بأحفادي؟ أليس لديهم أم وأب يهتمون بهم ؟
أنا صحيح سأحبهم كثيرًا ، ولكن لن أكون أحن من أمهم وأبيهم عليهم، فهؤلاء الأولاد لديهم أم وأب سيحبوهم كثيرًا، تابع كلامه النتن:أنا أقول لك يا زوجتي الجميلة: أن هناء تستطيع أن تقوم ببعض الأعمال عنك، لديها منزلها الجميل، وعندها
(نانا) خادمتها الأثيوبية تلك المبدعة تصنع لي الكابتشينو اللذيذ...يا إلهي ما ألذه من يدها، وسكالوب و كريدون بلو، (السمك المشوي الهمبرجر). إنها بارعة جدًا .. يحرق حريشها.

ما ألذ طبخها، يضحك بصوت مرتفع جدًا. يتابع كلامه المستفز:
الفطائر التي تصنعينها أنت لي تزعجني كثيرًا وتصيب معدتي بالتلبك، وأسناني لا تستطيع أن تلوكها جيدًا فهي قاسية.
عندها بدأت الأسئلة تدور في رأسي ، أصابني الدوار:
هل هذه هي مكافأة نهاية الخدمة لي ؟ حتى في نهاية كل خدمة في أي مكان في العالم وأي عمل على الأقل يخرج العامل براتب معاش شهري وبتأمين صحي، وبطاقة غذائية، ومرشد نفسي. يعني هناك مكافأة نهاية الخدمة، تشعره لو القليل بالسعادة، أما مع هذا المتسلق الوصولي، ما هي مكافأته لي بنهاية الخدمة معي ؟
اللعنة عليك وعلى أمثالك أيها الجبان، قبح الله وجهه البشع، وأيضًا تلك السافلة، الساقطة .. ما هو الشيء الغريب العجيب الذي أعجبها برجل تجاوز الستين من عمره ؟ وفقير ولديه عدة أمراض، ولديه سبعة أولاد ؟
كل لعنات الكون تنزل عليكما معًا، لا شيء يطفئ الغضب في داخلي حينها كنت سأفقد صبري وأعصابي بعد قليل أمام ضيوفي وأبنائي وجيراني، سقطت على الأرض، أصابني الإغماء، جاءوا لي بالطبيب أعطاني إبرة الإنسولين، وكتب لي بعض المهدئات، ومن حينها وأنا أتناول حبوب السكري والضغط، و المهدئات.

عدت إلى وعيي، أدركت حينها أن حكايات الصمت والأسرار والعلاقات السرية، تكون مسلية، وممتعة، أكثر من حكايات العلن.

هل هي إمرأة لعوب؟! تلاعبت به عبر الزمن أخضعتهُ لشهواتها، لمزاجها، أم هو من كان يرسم ويخطط لهذا اليوم ؟

لا .. هو زوجي الخائن لو ما كان يخطط لذلك اليوم، ما كان حصل ما حصل.

كانت سمراء جميلة، تلون شعرها بالأشقر.

وأحيانًا تكون صهباء بلون فرس جدي العجوز المتهالك عبر السنين، ذلك المغفل المتعلق بها، زوجي المحترم، ركن كل حياته الماضية معي، في زاوية صغيرة خلف حياة سرية.

واختارها هي ليكمل معها باقي السنين.

كلما أختلي بنفسي سرًا، يفر الدمع من عيني كأنه شلال ينحدر من سفح الجبل بعد ذوبان الجليد عنه، في أغلب الأحيان كثيرًا كنت أشعر، بأنها امرأة عبثية، تحب التلاعب مع الرجال ولكن كنت أقول: لا يمكن ذلك ولا أريد أن أضعها بموضع الشك، قد تكون هذه إشاعات، الناس تطلق كلامًا أحيانًا تكون غير صحيحة وغير منطقية. لماذا أغلب الرجال يحبون الشقراوات عند اختيار شريكة حياتهم ولكن عند المغازلة تهون السمراوات. أحاول فهم الأمر ولكن لا جواب لدي!

لماذا يريدون زوجاتهم شقراوات وبيضاوات وجميلات ؟ وذوات سمعة طيبة وبنات أصول وحسب ونسب.
بينما المغازلة والعبث مع السمر والنساء المشكوك في أخلاقهن، ويقولون أن نصف الجمال هو للسمراء، وتضيع جميع الأموال على مساحيق المكياج والتبرج، و أبر البوتكس.
كانت أمي تقول لي: (روحي يا بيضة، دبري حالك وتعي يا سمرة أنا بدبرلك حظك.)
وجدت أن الطهر يأتي أبيض ناصعًا فاتحًا بلون الثلج النقي.
ولكن عندما يأتي الربيع، يبدأ القحط بأول أيام الصيف، أجل تلك الصهباء جاء دورها من بين كل النساء اللواتي يرغبن بالعبث معها، أرادت تلك الزاوية خلف الظل، خلف وهج النار حتى لا تظهر فضائحهم ، في خوف مزرٍ مما يحدث حولهما.
وأخيرًا كانت هي النهاية يتشبث بها حتى مماته، هل كل النساء مثل بعضهن البعض ؟ لا هناك نساء يبنين البيوت!! ليكبر أولادهن بها... ويأتي الأحفاد. وهناك نساء مثل هذه التي كانت أمامي. حقيرة لا تهتم إلا بمفاتنها المصطنعة، كلها (حقن بوتكس).إنها قبيحة ونتنة؟ ماذا يحدث للرجال، عندما يكبرون في السن ؟
هل تصغر عقولهم، لماذا؟
يهوون الفتيات الصغيرات والجميلات، أما في أوقات شبابهم....لو تعرض عليهم امرأة من جيل والدتك...

وكبيرة في السن يقول لك: لا يهم عندي، لا الجمال ولا المال ولا العمر ولا أي شيء المهم عندي هي الأخلاق، والمعاملة الحسنة، والسمعة الطيبة!! كم أنتم أيها الرجال تتلاعبون بنا عندما تغدر بنا السنون.

هم يعلمون ما يريدون، ويخططون جيدًا، محصنين حقوقكهم منذ الولادة، انتهى الآن دوري في حياته البالية.

جاء الشباب يزهر في عقله من جديد،

لأبقى تلك المرأة العظيمة العجوز ركنًا ضائعًا في زواية البيت لا حول لي ولا قوة... نعم.... نعم.

كم أنت امرأة عظيمة يا سيدة(شفيقة)

ها..ومن يشفق عليك انتهت صلاحية عطائك، عندها فقط قررت أن أهاجر إلى هنا مع ولدي الأصغر (جلال) و أجلب باقي أولادي معي بلم الشمل العائلي.

أجهشت السيدة (شفيقة)بالبكاء سحبتُ منديلاً من حقيبتي التي كانت أمامي وناولتها إياها، السيدة شفيقة؛ سورية من مرمريتا...ومرمريتا هو اسم سرياني وسبب تسميتها بهذا الاسم هو أنه كان يوجد فيها كنيسة (مارمرتا) أي كنيسة القديسة (مرتا) وأخذ هذا الاسم يتطور على مر الأيام حتى أصبح (مرمريتا) واختصر إلى اسم (مرمرمتا) وأخذ عن كلمة سريانية وهي (مارماروثا) وتعني سيدة السيدات أو قديسة القديسات.

قالت لها (كريستين) :

كانت أختي (روز) تشتكي من ذلك المترامي على تخت الرجولة مثلك تمامًا يا سيدة (شفيقة). و تقول لنا: يعيرني دائمًا بحالي في كل مرة ، لمَ لا تزهرين وتأتين لي بالبنين ؟

وكأن هذا الأشعث نسي أن الفحولة تنقصها رجال بدون كرش أو رائحة عرق كريهة.

كيف يزهر الليمون في شجرة الكريفوت تقول له: أرأيت أيها الأشعث لم يزهر الليمون أصبح مر المذاق، رائحته عفنة.

هل فكرت يومًا أن تهتم لو بالقليل بنفسك؟ على الأقل تقوم بالاستحمام، وتنظيف أسنانك، وتحسين مظهرك.

أنا أنجب لك البنات وأنت دائمًا تعيرني بما أنا لست فيه، هذه خلفتك أنت أيها الذكر، انظر لنفسك ألا تخجل مما أنت عليه ؟

في ذات مساء حدث عراك قوي فيما بينهما يريد إنجاب ذكر يحمل اسمه واسم عائلته بعد مماته، خرج من باب منزلها يهمر بغضب ويشتم ويتوعد، دون أن يخبرها إلى أين وجهته، جاءها بفتاة صغيرة في العشرين من العمر.

قال لها: في سخرية مشمئزة منها، أرأيت يا صاحبة الوجه الجميل، يا ذات الحسن البديع، هذا هو صاحب الكرش يستطيع أن يتزوج من يشاء، وفي أي وقت من العمر وفي أي زمان ومكان أما أنت فلا تصلحين سوى للتنظيف ورمي القمامة آخر الليل في الحاوية وإنجاب

البنات، بصقت أختي (روز) في وجهه وقالت له: ليس الحق عليك، بل عليها وعلى أهلها الذين قبلوا أن يزوجوها لرجل من عمر جدها.
كيف يرضون بزواجها منك ؟ وأيضًا أنت لِمَ ترضين برجل همه الوحيد أن ينجب الذكور ألم تريْ منظره ؟ لعنة الله عليكما أنتما الاثنين معًا.
ذهبت أختي (روز) إلى بيت أهلي وتركت بيتها بعد عشرين عامًا من الزواج لأنها لم تستطع أن تنجب له الولد ورفضت العيش مع امرأة أخرى في ذات المنزل.
قالت (جاسكا): ارتاحت منه ومن سوء طبعه السيء، هو بعكس حبيبي الجميل (أيهم).
عندما كنا ما نزال في دمشق قبل أن يتدبر لنا أخي الأكبر رحلة هروبنا عبر بيروت إلى هنا، و أقامتنا في مورلي تعرض أيهم زوجي لعملية خطف كادت أن تودي بحياته وأخسره.
في الخامس عشر من شهر أيار سنة ألفين وثلاثة عشر في تمام الساعة الثامنة مساءً.
كنت أظن بأنه كان عشاءنا الأول لذكرى زواجنا وليس العشاء الأخير من تلك السنة.
قبل أن يختفي (أيهم) فجأة وبدون سابق إنذار أو موقف ينبئ أنه سيرحل أو يتخلى عني، بصوت منخفض فيه الشوق والحب يداعب عتبات نبض قلبي.
كان يضمني إلى صدره ويداعب خدي بيديه، قلت (لأيهم)؛ أنت جائع يا قطعة من فؤادي.

قال: أجل إن عصافير معدتي تزقزق.
قلت له: لا تدعهم يزقزقون سأطعمهم حالاً ، سأعد لك عشاءً وقدحًا من النبيذ.
لنجلس على طاولتنا المعهودة في الفناء الخارجي للمنزل ونحتفل معًا بأول ذكرى من زواجنا كل عام وأنت بخير يا حبيب الروح.
كنت قد جهزت هدية صغيرة، أحضرتها لهُ
قبل يومين من ليلة اختفائه كانت عبارة عن ربطة عنق من الساتان المونّس بكل الألوان، وساعة يد ..كان مولعًا بربطات العنق والساعات الأنيقة.
هو مهندس زراعة يشغل منصبًا محترمًا في وزارة الزارعة.
قال لي سأذهب لأحضر الدواء لأمي بينما تنهين أنت العشاء
منذ قليل اتصلت بي وقالت إن دواء الضغط نفذ من عندها سأعود بالحال لن أتأخر، قلت له حسنًا.. ولكن لا تتأخر كي لا يبرد الطعام وأعاود تسخينه من جديد.
قال لي حين ذاك: لا يا حبيبتي ربع ساعة وأكون عندك، في تلك الليلة ذهب ولم يعد، عندما كنا في منزلنا القديم في منطقة التجارة بدمشق كان لذلك المكان ذكرى جميلة، كنا صغارًا أنا و(أيهم) عندما كنا نلتقي، يوجد خلف منزلهم من الجهة الشمالية لبيت (أيهم) حديقة صغيرة وشجرة لبلاب، كنا نهرب من المدرسة ونختبئ خلفها أوقاتًا طويلة في حديقتهم،

إنها ذكريات لا تنسى كانت تمر لحظات وأوقات طويلة، نجلس تحت الشجرة نتحدث كثيرًا ويمر الوقت دون أن ندري بأنه مر وقت طويل، كان يقف أمام الشجرة ويحفر اسمه مع اسمي عليها، أنا متأكدة أن أسماءنا مازالت محفورة عليها إلى الآن، والله أعلم إذا ما زالت موجودة أم ذهبت مع القصف خلف تلك الأشجار والطاولة والمقعد الخشبي المنحني الملون بألوان الخريف الحزين، كلها ذكريات لا تنسى.

كأن كل منا مازال يجلس على شرفته يستمع للحنه الخجول، ثم تقترب أناملنا ويبدأ الإحساس بلحظة الشجون، كأن الكون صعد في ذلك القطار السريع وبدأ العمر يخلي راكبيه، سنة وراء سنة، ويمضي العمر!! وقد أخلى القطار كل سنين أعمارنا.

على تلك الطاولة، كان قدح النبيذ والعشاء لم يجهز بعد، مر شريط الذكريات بخلسة وبكل خفة وذكاء تسلل عشقه لروحي بدهاء أشعل نار الغيرة والحيرة في فؤادي.

اختفى أيهم في تلك الليلة ولم يعد، حينها قلقت كثيرًا عليه بدأت في الاتصال بأخيه (ناجي).

قال لي أخوه ناجي: منذ قليل ذهب لبيته أحضر الدواء لأمي وغادر بسرعة قال إن جاسكا تعد لنا العشاء احتفالاً بذكرى زواجنا الأول وذهب إليك مسرعًا.

حينها زادت الشكوك في رأسي.

ذهبت لبيت أخيه وعندها قررنا أن نبلغ الشرطة على أنه اختفى ولم يعد إلى البيت منذ ليلتين، كتبنا ضبطًا عند مخفر الشرطة في منطقة برح الروس بدمشق.
بعد مرور سنة ونصف على اختفائه، وأنا في بحث مستمر أنا وأخوته، ولم نعلم عنه شيئًا، عند المساء سمعت صوت الطرق على الباب ركضت بسرعة لأن في هذا الوقت لا أحد يأتي لزيارتي سوى جارتي أم صلاح، فتحت الباب الخارجي لمنزلنا إذ رأيت (أيهم) هو من كان يطرق الباب ويقف أمامي على باب منزلنا، حينها أصابني الإغماء، وفقدت وعيي، حملني إلى الداخل، قلت له عندما صحوت من غيبوبتي واستعدت وعيي من تلك التي أصابتني عندما رأيته بعد غياب عام ونصف سألته على الفور: أين كنت ولم اختفيت ؟
قال لي : إنها قصة طويلة سأحكي لك كل شيء ونحن نتناول عشاءنا أما زال موجودًا على طاولتنا في الحديقة، ضحك هو كعادته وضمني إلى صدره، وأنا من شدة الصدمة أصابني الجمود والاستغراب والفرح والسعادة في ذات الوقت.
قلت له : حاضر يا قطعة من قلبي الآن أجهز لك العشاء، و أنا أعد له طعام العشاء روى لي لحظة اختفائه.
قال (أيهم) لي: عند عودتي من بيت أمي بعد أن أعطيتها الدواء الذي طلبته، حدث معي أمر فظيع فقدت على إثرها ذاكرتي ولم أعد أذكر إلا أشياء بسيطة عن حياتي

الماضية، قلت لـه: لماذا ...هيا احكِ لـي بسرعة كل ما حدث.
قال لـي: أنت التـي ستذكرينني بكل شـيء هكذا قال لـي الطبيب ستتذكر كل التفاصيل عن حياتك الماضية عندما تعود وتجتمع مع عائلتك.
بعد قليل سيأتي أخـي نـاجي وزوجتـه وأحكـي لكم كيف اختفيت.
قلت له: حسنًا إذًا من أين نبدأ؟.
أما زلت تذكر عندما اختبأنا خلف الشجرة وسطع ضوء القمر وكشف أمرنا ؟
حينها كانت أمك تبحث عنا، وأرسلت أختك هيامَ لتكون مراقبًا شخصيًا علينا.
عندما وجدتنا ضحكنا كثيرًا.
قالـت أختـك حينهـا سـأتكلم لأمـك كيـف وجـدتكما معًـا وستقوم هي بمعاقبتكما.
وكأنهم لم يكونوا يعلمون أننا نعشق بَعضنا البعض منذ كنـا فـي الأول الإعـدادي فـي المدرسـة وقبـل موعـد الخطوبة بكثير.
أتذكر أنها كانت أول ليلة لنا لنهرب منهم إلى المقهى المطل على جبل قاسيون البعيد عن عيونهم خوفًا من أن يلاحقنا أحد بعد أن لبسنا الخواتم في ليلة خطبتنا.
قال لي أيهم: على إثر الحادث الذي تعرضت لـه فقدت نصف ذاكرتي، ولا أتذكر إلا القليل منها.

قلت لـه فـي حينهـا: لا تقلـق يـا حيـاتي سأسـرد لـك كـل قصص حياتنا معًا منذ أن تعارفنـا إلـى يومنـا هذا وأنـت سـوف تسـتمع لهـذه الحكايـات وتتـذكرها كلهـا معـي ... اتفقنا يا حبي الوحيد... من أين أبدأ ؟

قال لي: احكـي لـي كل صـغيرة وكبيـرة أريـد أن أسـتعيد كل لحظة مرت معنا.

أجبتـه: إذًا ...سـأبدأ عنـدما كنـا مـانزال صـبية نلعب معًـا أمام باب منزلكم، ثم تقف تنتظرني إلى أن أجهز ونذهب معًـا إلـى المدرسـة، وكيـف نهـرب مـن بعضـنا الـبعض ونختبـئ خلـف الجـدران ونتـدحرج علـى حافـة الـدرج، ونتزحلق على الثلج وأنت تلهث خلفي لتمسك بـي لأننـي أخذت حقيبتك منك ... هل تذكر هذا ؟

وأول يوم في عيد الفصح المجيد وعيد الفالنتـاين وأعيـاد المـيلاد ورأس السـنة كيـف كنـا نحضـر الهـدايا ونجهـز للاحتفال بكل مناسبة ستمر معنـا. وكيـف كنـت تنتظرنـي وأنت تطرق علـى جـرس البـاب لكـي أنتهـي بسـرعة ولا أتأخر عليك لكي نذهب معًا إلى القداس في الكنيسة وإلى حديقة الحيوانات، ونلعب مع المهرج والسيرك.

علّ وعسى أن هذه الأحاديث تعيد لك شيئًا من ذاكرتك.

هـل أكمـل أم تحكـي لـي حكايـات هربـك منـي وكيـف اختفيت ولمَ لم أعد أسمع عنك شيئًا ؟ ضـاعت مكـاتيبي في صناديق البريد، بحثت عنك في كل مكـان سـألت كل المـارة وفـي الحانـات، وعنـد بيـوت الأصـحاب علهـم يخبروني أين أنت.

كنت كل يوم أذهب إلى الكنيسة في القصاع وأصلي كي تعود وأن تكون بخير ولا يصيبك أذى أو أي مكروه.
لقد بكيت كثيرًا ورفضت أن أصدق أنك مت أو أنني فقدت الأمل في عودتك.
كان عندي دائمًا ثقة بعودتك لي وقلبي يردد: سيعود وسنكبر معاً، هو لم يخذلني يومًا، هو السعد الذي عوضتني به الأيام عن غياب أبي وأمي وأخوتي عني.
قال لي: قبل مجيئي إلى هنا ذهبت لبيت أمي قالوا لي: أنها فارقت الحياة منذ ستة أشهر، لا أعلم لِمَ حدث كل هذا معي وماتت أمي دون أن أراها أو أودعها.
الرحمة والسلام لروحها وبدأ يجهش في البكاء والنحيب كأنه طفل صغير تاه لحظته عن حضن أمه.
قلت له : أجل يا حبيبي كانت أمك على فراش الموت تمسك بيدي ودموعها تغرق الوسادة، أدمت قلبي وهي تقول لي: ابحثي عنه يا (جاسيكا).
إنه هنا بالقرب مني ولكن لا أستطيع أن ألمسه أو أضمه لصدري، تعالي يا ابنتي اقتربي مني وعانقيني أنت جزء من روحي وذكرى جميلة من ولدي الغائب (أيهم) فأقترب منها وأضمها وأعتني بها، ودموعي تبلل وجنتيها، ونعيش الحزن والألم معًا، وصوت القذائف والانفجارت تهز الأرض والمكان في حينها.
كنت أسرد لها كل الليالي الجميلة التي قضيناها معًا وتحكي لي حكايات أصحابك وشقاوات أولاد عمك

وخالك ونتبادل الابتسامات والضحكات تارةً وتارةً أخرى يبدأ النواح والبكاء.
أخبرتني مرة عندما تراهنت أنت و(حامد) ابن أم محمود في لعبة (مباراة القدم) في ملعب العباسيين للاعبين الناشئين، الفريق الذي يفوز سيحمل الآخر على ظهره ويجول به أمام كل أهل الحي.
عندها فاز فريقك وبدأت تركض خلفه ليحملك على ظهره وأنت تضحك والكل في فرح شديد بالفوز.
جاءت أمك وسحبتك من يدك وأخذتك لمنزلكم لأنها جهزت لك الطعام، و أنت تركض خلفها وأمامها لتهرب منها من جديد ويبدأ الصراخ والهرج والمرج.
ولم ترض إلا وحملك حامد على ظهره.
قال أيهم كنت في العاشرة من العمر...
أتذكر أم محمود جارتنا في العمارة المواجهة لبيتنا منذ زمن بعيد قبل أن ألتقي بك وتأتي وتستقري هنا مع جدتك أم طوني رحمة الله عليها، كانت تتهامس مع أم صلاح، قالت:
هناك فتاة صغيرة جاءت من بلاد الإفرنج لتعيش مع جدتها أم طوني الكبيرة في السن أرسلها والدها لتساعدها وتكون لها سندًا وعونًا بعد أن رفضت جدتك أم طوني وجدك الذهاب مع والدك وأن يعيشا بغير الحي الذي ولدا فيه وكان يقصد أيهم زوجي أثناء حديثه معي منطقة التجارة في دمشق.

يكمل أيهم كلامه: حينها رفضت جدتك هي وجدك السفر مع والدك إلى كركاس في فنزويلا فكنت أنت الفتاة الجميلة الزائرة التي أقمت عند بيت جدك و اختارها قلبي.

قالت جاسيكا عندما سافرنا جميعنا إلى كركاس في فنزويلا وبدأت تنتظر جدتي عودتنا، حزن أبي كثيرًا قرر حينها أن يرسلني للعيش مع جدي وجدتي، كنت حينها في الثامنة من العمر.

ذات يوم عند العاشرة صباحًا أرسلتني جدتي لأشتري لها اللبن والخبز من البقالة في أسفل العمارة، أتذكر كان يوم السبت التقيت بأيهم وتعارفنا ومن حينها أصبحنا نلتقي عند بقالية ابن الهيثم.

عندها أذكر بدأت أشعر أن شيئًا في داخلي يتمنى أن يراه في كل وقت وكان هذا ما يسمونه العشق .

قال أيهم لجاسيكا: ومن حينها نشأت علاقة عاطفية بيننا، في البناء الذي كنا نسكن فيه عندما كنا في دمشق أي صوت يصدر يسمع عند الجيران.

ونحن نتناول طعام العشاء أنا و أيهم سمعت صوت أم أمجد تتحدث مع أم صلاح لأنها عادة من مخيم اللجوء في غرب البلاد عندما حاولت الهرب إلى ألمانيا هي وزوجها ولكن خفر السواحل أعادوهم إلى الحدود وظلوا في المخيم مدة من الزمن، ومن حينها قررنا أنا وأيهم أن نهاجر إلى أي بلد في العالم و ننجو بأنفسنا من أصوات القصف أو أن يصيبنا أي مكروه آخر.

كانت منطقة جوبر الجهة المقابلة لمنطقة التجارة والعباسيين حدث حينها اصطدامات قوية وعنيفة بين الجيش والمتمردين الإرهابيين ومعارك ضارية راح ضحيتها الكثير من المدنيين والعسكريين. و لم تنته المعارك حينها إلا بالمصالحة بين الفريقين ومن شدة المعارك الضارية الذي دارت بين الطرفين لم يبق من منطقة جوبر إلا بعض معالمها القليلة

حي جوبر هو أحد أحياء مدينة دمشق العريقة، كانت منطقة جوبر في القديم تضم مناطق العدو والقصاع والقصور والعباسيين والتجارة وعندما تم تنظيم هذه المناطق فصلت عن جوبر لتصبح أحياء مستقلة. ... تعود تسمية جوبر نسبة لغار كان يختبئ بها نبي الله إلياس وكان به جب صغير (بئر ماء) وكانت المنطقة برّية(غابة) فسمي المكان(جب بر) وتطورت التسمية إلى جوبر، وهذا الجب يقع الآن ضمن الكنيس اليهودي الموجود في الحي الذي يرتاده إلى الآن بعض اليهود السوريين والزوار الدبلوماسيين، أهالي الحي مسلمون وكما يقيم به بعض العائلات المسيحية وهي متعايشة بأخوة ومحبة وعلاقات أكثر من رائعة مع سكان الحي، و يقع في شمال شرق دمشق، وهو ملاصق لسور دمشق الأثري ، بين باب توما والقصاع والتجارة غربًا والقابون شمالًا وعين ترما وزملكا شرقًا والدويلعة جنوبًا. كثير من المؤرخين يعتبر حي جوبر المكان الثاني لليهود في دمشق قديمًا حيث يوجد فيه كنيس (دار

العبادة عند اليهود) وهو أقدم كنيس يهودي في العالم ويقع في شارع المدرسة في وسط الحي، وفيه أقدم توراة في العالم وكذلك مقام النبي إلياس عليه السلام ومقام الخضر عليه السلام. وكما يوجد في جوبر حمام عام يسمى الحمام القديم ويعود تاريخ بنائه إلى العهد التركي قبل نحو 650 سنة كما يوجد فيه أقدم نادٍ رياضي في سوريا وهو نادي ميسلون الرياضي ويوجد (ملعب واستاد العباسيين الدولي) ومركز رياضي يتبع لوزارة التربية وفيه مسبح وملعب لكرة القدم والسلة ، وبالقرب منه مشفى العباسيين ومركزان تجاريان حكوميان هما (مجمع العباسيين) التايم سنتر حاليًا ومركز الثامن من آذار ، ويوجد في جوبر أيضًا سوق الهال الجديد ومركزان صحيان أحدهما للتوليد وهما مجانيان يتبعان لوزارة الصحة ومشفيان خاصان هما العباسيون والمودة.

من أشهر الشوارع والأسواق: شارع الخرار ويبدأ من (ساحة البرلمان) باتجاه الشمال ينتهي إلى خلف كراجات العباسيين وفي منتصفه يوجد مدرسة " عائشة الباعونية الابتدائية " وقد سمي بشارع الخرار نسبة إلى نهر الخرار التي كانت المياه تخر منه وعلى طول الشارع تنتشر العديد من المحلات التجارية (بقالات، لحامين، مخبز، بائعي الخضار..). شارع وسوق الأصمعي: وهو الشارع الرئيسي والأكثر شهرة في جوبر وهو سوق وتجمع سكني طابقي على طرفيه،

تتوسطه ساحة تؤدي لأربع مفارق ينتهي بجامع جوبر الكبير (وبجانب الجامع يقع ضريح الأصمعي الشاعر عالم اللغة الشهير الأصمعي عبد الملك الأصمعي) وهو مسجد أثري ويعد أقدم مساجد الحي وكان يوجد خلفه مقهى جوبر الذي كان يجتمع به مختار ووجهاء البلدة لتداول شؤونها وحل مشاكلها، ويوجد خلفه من جهة الشمال الغربي الحمام العتيق والمقبرة القديمة.

شارع المدرسة: تقع في آخره باتجاه الجنوب مدرسة الجهاد العربي ومدارس الأونروا للأشقاء الفلسطينيين المقيمين في المنطقة ومن ثم الكنيس اليهودي (يذكر أن جيمس بيكر قد زاره عام 1990 أثناء زياراته المكوكية لسوريا لدفع عملية السلام.

يوجد في جوبر العديد من المساجد والمقامات أشهرها مسجد جوبر الكبير (الأصمعي) وبجانبه مقام عالم اللغة المشهور بالأصمعي ومسجد الصحابي الجليل حرملة بن الوليد رضي الله عنه ابن خالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وقبره داخل المسجد وهو شقيق الصحابي الجليل خالد بن الوليد وكذلك جامع الصحابي محمد الأوس في حي الآسية وجامع العمادية الذي يعد من أقدم مساجدها والكثير من المساجد ويوجد فيها العديد من الأسواق أهمها سوق المانطو وهو من أهم أسواق المانطو في دمشق حيث تقصده النساء من كل المناطق وذلك لكثرة المعامل المصنعة للمانطو ويقوم تجار وصناع هذا السوق بتصدير منتجاتهم لمعظم

الدول العربية وبعض الدول الأوروبية كما يوجد فيه العديد من المحلات والسوبر ماركات ومحلات الأدوات المنزلية والكهربائية وغيرها... .
فيه مشروع سكني حديث يحتوي على قسم للشرطة ومركز صحي ومركز ثقافي يرتاده أهل الحي بكافة اتجاهاتهم الثقافية والدينية ويوجد فيها مقسم هاتف جوبر . هناك مثل شعبي قديم متداول في دمشق (يهود خيبر ولا أهل جوبر) وهذا مثل محور محرف وأصله هو "إسلام جوبر ولا يهود خيبر " وأصل هذا المثل هو:
1-أن جوبر التي كانت أساسًا ثاني أكبر تجمع لليهود في العالم بعد خيبر وفي أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام وتحديدًا في عهد عمر بن الخطاب استطاع المسلمون فتح بلاد الشام بأكملها بعد معارك في محيط كافة المدن في مناطق سوريا وكافة بقاع الشام، وطبعًا جوبر كانت أحد البوابات التي دخل منها الفاتحون المسلمون حيث يوجد فيها قبر حرملة ابن الوليد، فعندما شاهد اليهود حسن تعامل أهل المنطقة من المسلمين الفاتحين ("لا تخونوا ولا تغدروا ولا تقتلوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة..." أطلق اليهود على أنفسهم هذا المثل .
2- لقد نشب خلاف على أرض البيدر عند مدرسة البيدر (مدرسة الجهاد العربي التي كانت بيدر قمح لأهالي الحي قديمًا) بين أهل الحي واليهود بأن الأرض هي حرم للكنيس وهي في الحقيقة لأهل الحي وفي ذاك الزمان كان أهل الحي حطّابين وأراضيهم في وادي

جوبر وهو منطقة عين ترما اليوم فقرر وجهاء الحي عقد اجتماع مع حاخام اليهود وتم تحديد الموعد وخلال أيام قام حطّابو الحي بنقل أشجار ضخمة من الوادي وزرعها في البيدر وفي اليوم الثاني جاء الحاخام وحكم بملكية الأرض لأهل الحي باعتبار أن الأشجار معمرة وهنا بانَ ذكاء أهل جوبر وتم إطلاق المثل من اليهود وأهل جوبر يعتزون ويفتخرون بهذا المثل. وجوبر تضم بين حناياها أناسًا من أطيب وأكرم وأتقى البشر وخاصة ما يلازم أهلها من الحشمة والعفة والدين والعلم كما تعد من المناطق المحافظة حيث أن أهلها ما زالوا ملتزمين بعادات وتقاليد الحشمة والأدب التي اشتهرت عن أهل الشام فمعظم نسائهم ماتزال تلبس المانطو والعباءات السوداء وكانت النساء أيضًا قبل فترة بعيدة تلبس ما يسمى الغطاء الأسود للخروج به إلى الأسواق و لاسيما في دمشق و"الغطاء اليمني" للتنقل في الحارات وبين البيوت المتقاربة كنوع من الغطاء الخفيف الساتر المحتشم السهل اللبس.

يوجد فيها مدرسة ثانوية(أنور كامل) وإعدادية كامل السباعي للشباب وثلاث ثانويات للبنات (أديب التقي وعبد الله يونس وعبد الله سويدة) كما يوجد العديد من المدارس الابتدائية والإعدادية منها للبنات ومنها للشباب.

ويبلغ عدد سكان الحي القاطنين وبشكل تقريبي /300.000/نسمة عام/2008/. كما تعتبر جوبر بوابة

الغوطة الشرقية إلى مدينة دمشق وهي شريان اقتصادي لها بما فيها من تعدد مجالات العمل/من مهن شعبية وحرفية وطبية وتجارية وصناعات صغيرة.
تتبع منطقة جوبر لمحافظة دمشق وتعتبر منطقة استراتيجية بالنسبة للمدينة منذ تبعيتها للمدينة عام 1968.
ومنطقة جوبر فيها ثلاثة أحياء(جوبر الشرقي + جوبر الغربي + جوبر المأمونية والاستقلال) وثلاثة مخاتير ويمر في حي جوبر نهر بردى من طرفها الجنوبي والذي يمر من منطقة الإحدى عشرية (شرقي باب شرقي) وعلى جانبيه كان يوجد منطقة الدباغات لدبغ الجلود والتي كانت تصدر الجلود الطبيعية لداخل سورية وخارجها وتم نقلها إلى منطقة عدرا خارج مدينة دمشق. ويروي نهر بردى وادي جوبر (ويطلق عليه أيضًا وادي عين ترما) وعين ترما كما يمر من جوبر رافد من روافد نهر بردى السبعة وهو نهر تورا حيث كان في يوم من الأيام مصدر خير على سكان جوبر وكثيرًا ما شربوا منه، وسقوا مزارعهم منه بالدور، نهر تورا (والكلمة سُريانيّة، تُشير إلى معنى الارتفاع أو إلى الجَبَل)، فإنّ الناس بدمشق قد عمدوا من قديم الزمان إلى "تَفْريع" نهر بردى، قُبيل دخوله العاصمة عند ما يُسمى "خانق الرَّبْوَة"، إلى "نُهَيرات" أحدها تورا، الذي يتهادى في سفح جبل "قاسيون"، مارًّا عبر "الجسر الأبيض"... فإلى "جوبَر" و"الغُوطة الشرقية"، مشكِّلاً

هنـاك مـع سـائر الفـروع مـا يشـبه "مِرْوَحـةً" تـروي الأراضي الزراعية، قبل أن يَغيض ماء النهر. و يوجد على النهر المذكور جسر تورا الذي خاض عليه الثوار أشهر معارك الحي ضد المستعمر الفرنسي

أكملت جاسيكا كلامها مع أيهم:

عندما سمعت أم صلاح تنادي بصوت مرتفع على جارتها أم أمجد وهما تتحدثان مع بعضهما البعض من شباك مطبخها المطل على الفرندة المقابلة لها في الجهة الجنوبية لمنزلهم، عندما هدأت الأحوال قليلاً وعاد جزء من الأهالي إلى بيوتهم، يتفقدون أثاث منازلهم ويرممونها.

بعد كمٍ هائل من القذائف والصواريخ التي كانت تدوي وتضرب الأهالي ولم ترحم كبيرًا ولاصغيرًا الكل يريد أن يكسب المعركة ولا يهتم كم عدد الضحايا، ومازالت بقع الدم على الجدران و شاهدًا على معاناتهم من الجوع والبرد.

تقول لها أم صلاح: اسمعي يا أم أمجد هذا مفتاح منزلكم، ما زال على حاله منذ أن تركتموه كنت فقط أفتح الباب وأسقي لك أحواض الورد انظري لقد كبرت ونمت وأصبحت أجمل من قبل، البناء الوحيد الذي سلم من القصف تكمل وتقول لقد أعمى الله عيونهم عنا يا أم صلاح:

لا أعلم كيف أشكرك كنت الأخت والصديقة تسلمي لقلبي يا خيتو تقولها، لها بلهجتها العامية الثقيلة ولكن

انظري إلى الغبار والأهوال كيف سأتدبر كل هذا الخراب الذي لحقت بالمشرقة الشرقية.
تجيبها أم صلاح: لا تقلقي
قال لي جارنا أبو محمود: سيعوضون الأهالي عن كل ما حل به من خراب أو دمار ، ترد أم أمجد عليها يا رب يسمع منك، تقول أم أمجد لأم صلاح لو تعلمين ما حل بنا في مخيم اللجوء البرد و الجوع والبرغش والأمراض.
الله وحده يعلم بحال هؤلاء البشر هناك، فرق كبير بين بيته وبين مناطق المخيمات الله يكون بعونهم.
تقول أم أمجد: أبو محمود رجل ملحد لا يؤمن بوجود الله فهل سيستجيب لنا الرب بعد كل ما يقوله عنه.
أكيد بعد كل هذا الكفر الذي حولنا هكذا سيحل بنا..حتى الأعياد لا يؤمن بها.
يقول أبو محمود: يجب الإصغاء للروح.
الله كامن في داخلنا، والإصغاء لصوت العقل وليس لكل ما يقول شيء نصدقه ونلهث خلفه. فثقافة الإصغاء عالم شديد الخصوصية، نعيشه بالفطرة والتربية الاجتماعية والسلوك اليومي المعتاد لنا، قوامه الأمل والصبر واستجماع الذاكرة والتهيؤ لاستقبال الأفكار واستحضار الأفكار البديلة والدخول إلى عوالم متشابكة من الأسئلة والأجوبة..

تشترك فيه الحواس كلها حسب الصفة أو المهمة للحديث والمحادثة وأهميتهما بالنسبة للشخص المصغي الذي عليه القيام بواجب الإصغاء والإنصات.
عندما تصل إلى مرحلة الهدوء في قمة الغضب و البرود في لحظات الشوق و الكتمان عن الوجع و الصمت في أقسى لحظات الألم.، تكون قد وصلت إلى النضوج حتمًا وسوف ترمي كل شيء خلفك ... و وصلت لمرحلة اللامبالاة أي ذهب الحب والاهتمام والشوق والحنين والخوف والألم وأصبحت الحياة بقعة صغيرة مركولة خلف الفناء لا أحد يهتم بها، ونحن أناس في مجتمع لا نحب أن نصغي لأحد الكل يتكلم ولا أحد يسمع للآخر.
ولم نزل تحت الأعاصير القابعة خلف الغموض من المستقبل بل هو الخوف يزرعونه بنا منذ الصغر ويكبر ليصبح رفيقًا لنا حتى القبر.
لحظة يا أيهم هناك قرع على الباب سأرى من هناك وأعود، لا تنم.
تفضلوا ..أهلًا وسهلًا بكم ، إنهم بيت أخيك
(ناجي) وزوجته يا (أيهم) إنه بالداخل ينتظركم.
دخلوا وألقوا السلام عليه بالعناق القوي الممزوج بالفرحة مع الدموع.
قال ناجي: كيف حالك أيها القوي ؟ أين كنت لقد انشغل بالنا عليك كثيرًا، بحثنا عنك في كل الأماكن وأقسام الشرطة، من قام بخطفك ؟ لم أصدق نفسي عندما علمت

أنك عدت للبيت. قال (أيهم) كنت أمام باب المنزل عندما ذهبت لإحضار الدواء لأمي أتذكر ذلك اليوم يا (ناجي) التي وقعت به أمي من على السلم إثر أزمة قلبية مفاجئة، كنت أركن السيارة بجانب الرصيف، فاقترب مني شاب وطلب مني أن أوصل زوجته إلى المشفى لأنها في حالة ولادة، دهشت من الأمر وصدقت ما هم يقولونه، ولكن عندما صعدوا، قادوني إلى منطقة مجهولة وأخذوا السيارة وكل ما يوجد في جيبي من نقود ثم قاموا بضربي حتى الموت، ظنوا أني قد مت وفارقت الحياة، عندما صحوت من الغيبوبة ورأيت نفسي في مكان غريب عجيب لا أعرفه،

أصابني الرعب والذهول من هول المكان.

قلت في داخلي: أين أنا ؟ ومن هؤلاء الذين أمامي؟ كل شيء حولي مجهول، كانوا أصحاب المنزل من البدو بيتهم من الطوب البسيط، رأيت رجلًا وامرأة وأولادهم حولي لا أعرفهم ولم أر وجوههم في حياتي استغربت حاولت النهوض كان الألم فظيعًا في رأسي، وجسدي فيه رضوض كثيرة إثر الصدمة والوقوع على الأرض، كان كل شيء حينها لا يصدق، قال لي الرجل: الحمد لله على سلامتك يا بني كنت ستموت ولكن الحمد لله الذي نعيش بحمده ونشكره أنك مازلت على قيد الحياة يا ولدي ستعيش كثيرًا وسترى عائلتك عما قريب.

تعالت الأصوات حولنا ثم ذهب الجميع وظل هو وزوجته وأبناؤه، ثم حضر جميع من في البلدة

للاطمئنان عني، لقد وجدني راعي الأغنام وأسعفني إلى بيته في بادية تدمر وقضيت كل هذا الوقت في منزله إلى أن استطعت المشي والحركة من جديد.
من شدة الضرب على رأسي فقدت ذاكرتي وبقيت طوال تلك الفترة في منزل الراعي، تعذب معي كثيرًا، رجل طيب وكريم النفس، ساعدني لأستعيد ذاكرتي، جاء بالطبيب إلى منزله، بالإضافة إلى الدواء أعطاني العلاج بالأعشاب.
هم قلة من البشر تجدهم بأخلاق
و بمواصفات هؤلاء الناس الطيبين، كانت زوجته وابنتها تغزل من فرو الماعز والغنم صوفًا، صنعت لي بساطًا لأجلس عليه ولحافًا خاصًا بي، كانت تقول لي: عندما تستعيد ذاكرتك يا بني وتعود لمنزلك بالسلامة، خذهم معك لتبقى لنا ذكرى في قلبك وكلما رأيتهم اذكرنا بالخير.
ها هم هناك، أحضريهم يا (جاسيكا) هم أناس طيبون جدًا وبسيطون ، يعيشون على الفطرة، لا داعي للتملق في الحديث أو في المعاملة، قد عشت بينهم كل هذه المدة وأنا لا أعلم من أنا ولكن كان الحب هو صلة الوصل بيننا، رغم أنهم لا يعلمون من أكون ولا من أي قوم أو دين أنا.
قال ناجي : الحمد لله على سلامتك يا أخي

كانت (جاسيكا) تعامل أمنا كأنها إحدى بناتنا وليست كنة هذا المنزل لقد تعذبت مع والدتنا كثيرًا ظلت طوال فترة مرضها إلى أن وافتها المنية معها. رحمة الله عليها.
مهما رأيت من علاقات حب وعشق لن أجد مثل العلاقة القوية التي كانت تربط (جاسيكا) بزوجها (أيهم) لقد عاشا في حي واحد منذ الصغر وفي نفس البناء كانا يلتقيان قبل الذهاب للمدرسة وبعد الانتهاء منها هو يكبرها بعامين، وأكملا في الجامعة معًا.
رفضت والدة (أيهم) زواج جاسيكا من ولدها في بداية خطبتهما، ولكن هما العاشقين أصرا على التمسك ببعضهما البعض، تقول حماتها أنها قصيرة بعض الشيء وولدها طويل القامة، لا يتناسقان في الطول أو الجمال ولكن بعد اختفاء
(أيهم) قويت علاقتهما وبدأت تتحسن المعاملة بينهما.
يبدو أن الحزن والحب والخوف والقلق كان مصدره واحدًا، ألا وهو(أيهم) لذلك اجتمع حب المصير لشخص واحد.
تخبرني(جاسيكا) أنني مملة.
تقول لي: أنت يا أيلول تبحثين عن باقي أخبار الناس الذين رحلوا ولا تهتمين في الحاضر رغم أنك تنبذين كل ما يذكرك به وفي سياق حديثك دائمًا تتحدثين عن ماضيكِ ...أقول لها: أتعلمين شيئًا، عندما أذهب لمنزل أحد من أصدقائي أو أقربائي أشعر كأنهم سحرة أو مشعوذون، تضحك بصوت عالٍ ومرتفع، تقول لي:

ماذا يخبرونك ليدب الرعب في جوفك، قلت لها: لا شيء أسئلة سخيفة ولكن نظراتهم لي مرعبة وغريبة، يشككون في كل كلمة أقولها، قد يكون هذا وهم ولكن أرتاب من هذا الشعور السيء.

قالت لي: أنت تحتاجين لطبيب نفسي يخرجك من هذا الخوف، أنت تعانين من الاكتئاب، يجب أن تتحرري من الخوف والقلق الكامن في داخلك، وأن تجدي رجلًا يشاركك هذا العمر فأنت ما تزالين في زهوة جمالك.

قلت: يا جاسيكا.. من ينجب الرجال؟ أليس نحن النساء لِمَ نتذمر منهم وننعتهم بالجهل والتخلف أليس هم نتاج تربيتنا الفاشلة لِمَ لا نعترف أننا أمهات متخلفات؟ نحمل لهم العادات والتقاليد ومن ثم نشتكي من أهمالهم لنا، ونبدأ بالشكوى والنحيب والبكاء على سوء تربيتنا لأبنائنا،

ومن أزواجنا نحن نخلق جيلًا جديدًا منسوخًا عن أفكارنا وعاداتنا وتقاليدنا ونقول أن الذنب ذنبهم، هذا الأمر يجب أن نجد له حلًا وإن وجدتِ رجلًا متمدنًا فإنه أول ما يبدأ بالتحقيق عن الماضي والحب القديم، أقول له: يا ولدي، ليس لك علاقة بالماضي ولا علاقة لك بماضي أحد، إنها قمة الحماقة أن تعيش على أنقاضه، وتكون محجوزًا في أعماق ذاكرتك بين الماضي والحاضر، أو في أحلام نومك، تحرر من أفكارك ومعتقداتك لتستطيع أن تعيش الحياة بجمالها وشغفها ولذتها.

أحيانًا كثيرة نستيقظ من نومنا مفزوعين لأننا رأينا كابوسًا يتجول حولنا ولكن في الواقع هذا تاريخنا الماضي الحافل بما كنا نقوم به.
ثم تصر في كلامها و تقول ل (جاسيكا): أن المرأة التي تغلي النار في قلبها، كلما قابلت أي موقف تبقى صامدة وتبتسم هي امرأة قوية، أجيبها بكل استهتار: هي امرأة ضعيفة لا تواجه الواقع بقوة.
فهذا الصمت سينفجر كقنبلة موقوتة أو كغيمات السماء عندما تسقطها حبات البرد فوق سطح البحر ستخبره حكايات كل من مر بطريقها.
ونحن نقلب جمرات النار التي أمامنا ونضع الجمر على الأرجيلة قالت جاسيكا: احكي لهم عن الحلم الذي يراودك كل ليلة يا أيلول ...قلت لهم :
كنت كل ليلة أفزع من نومي على إثر حلم يراودني لمدة شهر بعد وفاة والدي.
حزنت كثيرًا على وفاته كانت دموعي تغرقني وألوم نفسي لِمَ لم أُمضِ وقتًا أطول معه بدل انشغالي بأمور عائلية حقيرة وتافهة.
كان الحلم مرعبًا ومدمرًا للأعصاب والعقل والقلب، جثتي رماد تتطاير في الهواء والكل عالق بين الأرض والسماء، وأنا في زنزانة
باردة أرى الجثث من ثقب الباب، كل من حولي خفافيش يأكلون الجثث المترامية فوق الغيم. ثم أجري حافية القدمين و لا أصل إلى الماء الأزرق الذي أمامي، حلقي

جاف أريد ماء سأموت من العطش، لِمَ لا أستطيع أن أشرب ؟
كل هذه الطيور تحوم حولي، السماء بيضاء، في تجويف دائري، كانت فوهة البركان رمادية تصعد منها كل هذه الأرواح من فوهتها، يصدر صوت جهور وقوي من خلفي ، لقد أهلكتني الحياة و حطت من عزيمتي، دمرت كاهلي، ألبستني ثوب الحداد، نثرت بذور اليأس بين حنايا أجفاني، لِمَ كل هذا الصخب في معركة لا غالب ولا مغلوب فيها، غير انتصار الموت على الحياة. حينها يتعالى الصوت أكثر وأكثر ويصرخ: رفقًا بي يا بشر ما عاد في العمر بقاء، يأتيني صوت آخر يقول: لحظة يا أيلول مازلت أخبئ لك مفاجأة من الحياة تنعم عليك بكرمها، أين هي هذه المفاجأة ؟ يعود الصوت الجهوري القوي ها هنا الطريق إلى النهاية يا صغيرتي ؟ قلت له : سأمشي نحوك.. لا....لا هنا كل شيء، هذه شجرة التفاح وهذا مشمش وهنا الدراق يا قدري جميع أنواع الفاكهة التي أحبها هنا، أمد يدي أمسكها، تقترب من فمي يدي فارغة لا يوجد فيها شيء، أين ذهبت كل هذه الأشجار كل شيء سواد، ثم أسمع صوت الألم ، يتحدث معي، أشعر أن قلبي ينتزع من مكانه، فأسأل قدري كم من مرة أنقذت روحي منك ؟ يسعفني حنيني متنقلة على نقالات الإنعاش! يغيث روحي بالأمل، لم أطلب من الحياة سوى القليل والقليل من السعادة، كانت مكافأتها لي بشعر أبيض أشعث يتلذذ

الشيب في رأسي إلى أخمص قدمي، بظهرٍ أحدب يقبل الأرض وتسبح السماء بحمده وشكره. يا ويلي هذه أنا ألبس الثوب الأبيض، يأتيني صوت بعيد أنت في قبرك لا مكان لك سواه، فكانت خيبة أمل فأرى طيف أبي من بعيد، أركض نحوه، تراقصني الأفكار من جديد فأفرح كثيرًا، وأنا أركض وأركض ولا أصل ثم أشاح لي بعكازه وذهب، حاولت الجري ولا أستطيع مكبلة قدمي بالسرير . قال لي : ستريننني كل ليلة أطمئن عليك ولكن يا ابنتي لا تنسي أن تسقي قبري وتترحمي عليّ ، أنهض من نومي بفزع وبكاء يستمر لحين ذهابي إلى مكان عملي.

دائمًا يقودني الشوق إلى تساؤلات حول جدوى الحنين ولوعة القلب وكيف يترك الحزن والأسى صدمة بعد صدمة، إلى أين الرحيل والمفر حتى لو كنت في عرض البحر تتصارع مع الموت ستحتاج إلى من يقف إلى جانبك وتتساعد معه ، نحن البشر خلقنا لنتعايش مع بعضنا البعض.

لم تكن رحلتي إلى هنا في بلغاريا، رحلة سهلة كانت مرهقة ومدمرة للأعصاب، حدث كل شيء معي بشكل مفاجئ وغير متوقع، كنت في زيارة عائلية لبيروت لبيت عمي الذي كان يقيم هناك منذ كان صغيرًا عاش و تزوج من فتاة بيروتية واستقر معها، وأنجب أطفاله وأصبح فردًا من مجتمع يعده عائلة له، عندما عرضت عليّ جارة ابنة عمي التي أقيم عندها أن أهاجر إلى

مورلي في بلغاريا كان الموضوع مجرد حديث عابر وانقلب الموضوع جدي جدًا، دبروا لي أ مر الهجرة بسرعة البرق وكأنه حلم، كلما أتذكر أصيب بالهلع، كيف حدث أن أترك بلدي وأولادي وأهلي وأسافر إلى مكان مجهول، أجهل لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل شي، والأصعب من هذا كله أن أعيش بمفردي بعيدة عن أولادي، وفلذات كبدي،كم أنا غبية ظننت أنني أستطيع أن أجلبهم معي.

ولكن الأمر صعب جدًا، رفض زوجي السابق أن يغادروا إلى هنا، وأنا عالقة بين الشوق والحنين لهم، وبين عملي وحلم حياتي الذي تحقق أخيرًا، بأن أكون في مكان جميل ورائع ومن أجمل أماكن العالم ولي عملي في الجريدة، وأصدقاء ولا أروع، ولكن لا تكتمل الحياة بكل ما نتمناه دائمًا.

قالت (عبير): أصبحت بلادنا العربية أشبه بمخيمات للاجئين وليس وطنًا فيه مواطنة أو كلمة حق، نحن نعيش البؤس والفقر في كل مقوماته، لا حقوق للمرأة ولا للطفل ولا حتى للمرضى نحن مجرد متسولون في وطننا، ليس بإمكاننا أن نعالج عقول كل البشر، ولكن بالإمكان أن نعالج عقولنا ويصبح منارة لكل البشر.

تابعت عبير كلامها..ليس حالكم أفضل مني، جميعنا وقعنا في مشاكل وهموم ... تمسك يدها (جاسيكا) وتقول لها: لا تبكي يا عزيزتي، السيدة (عبير)، عمرها تسعة وأربعون عامًا لديها أربعة أولاد، زوجها المدير المالي

في شركة الألبسة الجاهزة، عاشت يتيمة عند جدتها، ماتت أمها أثناء الولادة بها، أصابتها حمى النفاس، تزوج والدها بعد وفاة أمها بعام واحد، و قد احتضنتها جدتها ثم زوجتها من ابن خالتها الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا.

قالت عبير : ذات ليلة صيف حارقة، شديدة الحرارة، والكهرباء التي تقطع بالساعات الطويلة، والهم الذي يقودني إلى الجنون، من الوضع الأمني السيء، وكل شيء مرتفع من الأسعار مع ارتفاع الدولار، رغم أننا لا نتعامل بالعملات الصعبة، أو نتداوله فيما بيننا، يحاسبوبنا على أساس التعامل بالعملات الصعبة، وكل شيء حينها مفقود، والفوضى في كل مكان، ما عدا الخبز وبعض المواد الأساسية حاولت الحكومة تأمينها للمواطنين رغم إغلاق الحدود، تتابع كلامها: في لمح البصر نهضتُ مسرعة من نومي، لا أعلم كيف تخلصت من غطاء السرير الذي أعاق سيري نحو مكان الصوت، ارتديت روبي الزهري على ما أذكر،كان صوت القرع على الباب قويًا جدًا وأصوات رجال يقولون قد يكونون غير موجودين بالداخل خلع الباب.

اتجهت نحو مصدر الصوت، وجدت زوجي وولدي أمام الباب يشد كلاهما الآخر، تجمدت في مكاني،خيم الصمت لحظة الذهول، أحاطني المكان بروعة النسيان والاستفسارات والدهشة، بنفس الوقت اختفى صوتي،

غابت كل الأسئلة عن مخيلتي أدركت في لحظة أن شيئًا ما قد حدث، وأن حياتنا ستنقلب إلى جحيم.
أشرت بأصابع يدي إلى ابني وهمست بأذنه: اذهب، وارحل إلى الفناء الخارجي،و اختبئ، ظهر الخوف والذهول على وجهه.
قال لي: لماذا يا أمي لم أفعل شيئًا، ضغطت على يده وقبلت وجنتيه، ودموعي تغرق خده، اذهب يا ولدي، هؤلاء يبحثون عن الشبان وتطويعهم في معسكرات إرهابية هيا اختفِ في أي مكان وعندما يرحلون سنجد حلًا، لاحظت فجأة أنه حافي القدمين ولا يرتدي شيئًا يستر جسده سوى سروال نومه وفانيلة قطنية رقيقة، عندها أحسست شعورًا و كأنه فتاة صغيرة، يجب أن أستر جسده لكي لا تظهر عورته أمام الرجال، لا أعلم لِمَ خطر هذا على بالي، شددته من يده بقوة ووضعت منديل حجاب على رأسه، ألبسته ثوبي الطويل، أمسكت بيده مكنسة قش، ودلوًا وممسحة وقلت له خذهم على أنك خادمة وارحل من الفناء الخارجي. هيا بسرعة اختفِ، اذهب يا ولدي سيعذبونك كثيرًا ثم سيفخخون جسدك ويرمونك أمام أي مدرسة أو مشفى أو سوق مكتظ بالناس، اهرب ولا تعد حتى تراهم رحلوا، ضغطت على يده الباردة كالثلج، أنا أعلم أنك قوي ولا تخاف من شيء، ولكن الكثرة تغلب القلّة هم عددهم كبير وأنت وحدك لا تستطيع مقاومتهم، ارحل بسرعة، ارحل هيا...أمنت له الطريق حتى ذهب بسلام، عدت

إلى مكان الضجة والصراخ وجدت زوجي ملقى على الأرض، وجهه شاحب أصفر، جسده يرتعش، والعرق يتصبب منه، لقد أصابه هبوط سكر الدم الحاد، فتحت الباب بسرعة وبدأت أصرخ بوجوههم:انظروا إلى زوجي لقد مات مات. الكل تجمع حولي يصرخون.. أين هو ؟ أين الشاب الموجود في هذا البيت ؟ لمحت جاري أبا كرم، كنت أعلم أنه كلب وجبان وداسوس هو من كان يرشدهم إلى مكان الشبان الموجودين في الحي مقابل حفنة من المال.

_ هؤلاء الجبناء من العملاء والقوادين، يتخيل لعقولهم أنهم أذكياء وأبطال مغامرات وتسلية في حرب شمطاء تأكل الأخضر واليابس، نظرت في وجهه: هو أنت يا حقير، بصقت في وجهه، ولكنه كلب مغفل لا يهمه استحقار الناس له كل همه جمع المال والنوم مع الفتيات الصغيرات.

تربطت يداي ودموعي تغرقني وقدماي ترتجف من الخوف والرعب والقلق، زوجي ملقًى على الأرض في سبات، وموت بطيء وابني الذي اختفى في الظلام،لا أعلم أين رحل، فهو صغير لم يكمل عامه الثامن عشر، كنت سأعد له قالب حلوى، وأدعو جميع أصدقائه، بدأت بالصراخ من جديد زوجي يموت ، أنقذوه.. أرجوكم أنقذوه.

هم يفتشون في كل غرف المنزل ويعبثون بالأثاث،أكيد هم لصوص أيضًا يبحثون عن قطع الذهب أو المال أو

أي غرض ثمين لسرقته في طريقهم، هذه الحرب أظهرت كم هؤلاء الأشخاص فاسدون، يوجد في داخل كل منهم لص ونصاب صغير كبر في داخلهم مع أول فرصة قدمت لهم.
الضابط الكبير بينهم ذو اللحية الطويلة شدني من كتفي وأنا فوق زوجي أحاول إيقاظه، أنتِ هيا دلينا على مكان ولدك.
قلت له: لا أعلم لم يعد يعود للبيت لا أعلم مع من منكم ذهب، عدت إلى(أبي كرم) الخسيس الجبان وقلتُ لهم هو من أخذه منذُ أسبوع أرسل خلفه وذهب معه ولم يعد إلى البيت إلى الآن، في تلك اللحظة كل الأنظار تحولت نحو (أبي كرم) وبدأت الأسئلة تدور معه، وهو يقول لهم: إنها تكذب، لا تصدقوها، لم أره لقد كنت أراقب الحي وأنا أعلم أنه موجود هنا. اتجه نحوي قائدهم ونظر بعيني نظرة حقد وقال: إذا علمنا أنك تخفينه سأجرك من شعرك وأفخخ جسدك وأرميه في القمامة.
نادى عليهم بصوته الجهوري: هيا يا شباب فلنرحل، ذهب الجميع وظل زوجي يصارع الحياة في سبات ما بين الحياة والموت جاء الجيران وأسعفوه إلى المستشفى حتى استعاد وعيه،
سألت السيدة عبير حينها وأين ابنك الآن؟ قالت: عندما استعاد زوجي عافيته تركنا البيت والحي وجمعت كل المال والذهب الموجود لدينا وسافرنا عبر القارب إلى مورلي رغم مشقة الطريق وخسارتنا لجميع أموالنا

والتهديد بالغرق والموت في أعماق البحر إلا أنه كان هو الحل الوحيد لأحتفظ بحياة عائلتي من الموت والضياع، أكملت عبير حديثها وقالت: عندما تتكاثر الذئاب والكلاب من حولك لا ترم عليهم الحجارة فقط وتهرب من وجوههم بل، أطلق رصاصة الخلاص عليهم وتخلص منهم نهائيًّا.

قالت سميحة: جميعنا هربنا من واقعنا.

لنجد واقعًا جديدًا يحطم الكيان من الداخل، كانت رحلتي بلا اسم ولا عنوان، عندما التحقت بالمهمة التي أوكلت لي على عجل، تركت مكتب المحاماة الذي كان في برج الروس في دمشق وذهبت مع فريق إغاثة إلى الشمال السوري.

وأنا أبحث عن العائلات المتضررة من القصف والدمار، رأيت فتى صغيرًا لم يتجاوز عمره ثلاثة عشر عامًا قبل غروب الشمس يتأمل البحر بحزن شديد وكأنه كهل مر على رأسه ويلات العمر كلهُ.

سألته؟ لمَ أنت هنا؟ من جاء بك إلى هذا المكان؟ قال لي: جئت لأرى أمي! وأين أمك؟.قال لي: ذهبت من هذا الطريق. هل أنت متأكد مما تقوله يرد بصوت منخفض: أجل... يا سيدتي..كل يوم أراها تسير أمامي أبكيها أن تعود، لكن لا جدوى من بكائي، أمد ببصري إلى الأفق البعيد ولا أرى غير مراكب الصيادين،كيف ذهبت من هنا؟ إنه بحر كبير وواسع لا تستطيع السير فيه! لا يا سيدتي هي ذهبت مع أهل القرية جميعًا في قارب

صغير، لم يبق أحد الكل رحل، ذهبت لتبحث عن عمل وترسل لي النقود لأكمل تعليمي، هل أخبرتك بذلك؟ لا، عمي قال لي هذا الكلام، والآن أنا أنتظر هنا... ولكن يا ولدي أصبحت الشمس تميل للغروب، ما رأيك بأن أسير معك لبيتك وفي الصباح نأتي مرة أخرى وننتظرها أنا وأنت هنا؟

أجل ولكن لا يوجد لدي بيت.

_وأين تنام يا ولدي؟ بجوار قبر أبي.

وهل تعرف أباك ؟

أجل أعرفه جيدًا ولكن اختفى لمدة ليلتين ووجدوه مقطوع الرأس عند أسفل الوادي.

حسنًا إذًا، ومن بعتني بك؟ جدتي وعمي!

ها هو عمي هناك هل رأيته، إنه مقعد على كرسي متحرك بترت ساقه إثر شظية في أسفل ظهره.

جدتك هل تستطيع أن تعتني بك وبه؟ أجل، إنها تحبنا كثيرًا ولكن دائمًا تبكي وتترحم على أبي وأمي.

إذًا تعال معي، قال بصوت فيه بعض الشيء من الفرح: إلى أين تريدينني أن أذهب؟ قلت له: لا تخف يا ولدي! سأتحدث لجدتك قليلًا ونعود في الصباح لنرسل لوالدتك رسائل مع طيور النورس.

...هل سأرى أمي مرة أخرى؟

أجل سنحاول أنا وزملائي البحث عنها.

ملأت الفرحة عينيه: هل هذا صحيح؟!

نعم، ولكن اذهب أمامي أريد أن أرى عمك وجدتك! حسنًا هيا بنا، بدأنا بالسير أنا وزملائي... نسير خلفه،تارةً يركض وتارةً يتوقف ينظر خلفه ، ويبتسم ابتسامة تملأها حيرة وفرح! فجأة توقفنا أمام مكان مظلم يسطع منه نور خافت!

في البداية خفت قليلاً وخيم السكون بعد ما كان صوت البحر وطيور النورس تملأ المكان، اقترب مني الصغير وأمسك بيدي، جذبني منها وقال:يا سيدتي هيا اقتربي هنا بيت جدتي وعمي، رائحة كريهة تعم المكان ، سكون مخيف يخيم عليه ظلام مرعب مع نعيق الغراب، اقترب (حكم) مني وهمس بالقرب من أذني: أستاذة هل تريدين الدخول؟

استدرت لمكان الصوت؛ يا للهول، وقد جف سقف حلقي من فظاعة المكان وتلعثمت الكلمات، نعم أجل سندخل ولكن يا أستاذة هذه هنا (المقبرة).هل سندخل؟ نعم...نعم سندخل. الصغير يسكن هنا ويدعونا للدخول سمعت صوتًا يأتي من بعيد: (حازم) يا صغيري هل جئت؟

يقول الصغير:أجل يا جدتي لقد عدت.

وجئت لك بضيوف أجل يا ولدي، دعهم يدخلون هيا يا سيدتي اقتربي جدتي بانتظارك، أجل ... أجل يا (حازم) سأدخل كان حينها الشعور فظيعًا، هذه أول مهمة توكل إليّ بعدما تركت عملي في مكتب المحاماة ، وانتسبت إلى هيئة الإغاثة الدولية لمشردي الأيتام والحروب.

حاولت السير للأمام ولكن الرائحة كانت تفوح أكثر وأكثر ، إنها رائحة المقابر والدم وما زال الطيران يحلق في السماء رغم حلول أول الليل، صغر الكون في عيني وصغرت الحياة وبدأ البكاء والصمت والخوف والألم يخيم على المكان.

أمسك بيدي (حازم) من جديد وقادني نحو قبر أبيه، يخبرني كيف يحتضنه كل ليلة وهو يشعر بالأمان بحضنه.

اتضحت أمام عيني الرؤيا و أدركت كيف أن المصالح والحروب تتناسى أقلامنا وأحلامنا وأخطاءنا وعثراتنا وزلاتنا لنصبح مسودة ملأى بالشخبرات المملة تأخذها الرياح أدراج أزمان وأزمان مبعثرة من التشرذم والفكر الميت والعقول اليابسة قبل الحرب وبعد الحرب نحن جثث هامدة نمشي بلا روح نحن رحلة شقاء على هذه الأرض بلا اسم أو عنوان.

نحن آلات مدمرة للكون نحن كالدود يأكل الأخضر واليابس وإن لم يجد ما يأكله يأكل بعضه البعض إلى أن يتيبس ولا يجد شيئًا.

سألت الصغير ماذا تريد عندما تكبر؟

أجاب: أن أنتقم لأبي وأمي وعمي من موت وتشرد وعجز، نظرت بعينيه،قلت له: يا ولدي إن تضع تفكيرك في فكرة الانتقام هذا جهد كبير وجلد للروح والجسد عندها كأنك قتلت نفسك مرتين؛ مرة عندما وثقت ممن آذوك ومرة أخرى عندما شغلت نفسك بفكرة الانتقام..

لا تكن مثلهم فكر بمستقبل مشرق جميل ينتظرك ولا تفكر بالانتقام مازلت صغيرًا وستكون الحياة طويلة أمامك وجميلة.

التقيت بجدته وعمه تفقدنا المكان، ووضعنا أسماءهم ضمن لائحة المتضررين من الحرب علنا نستطيع مساعدتهم،

ثم طلبت من المساعد الذي كان المسؤول عن تسجيل الأسماء أن يأخذهم إلى مكان الإيواء، جمعنا كل أغراضهم ووضعناهم هناك بشكل مؤقت بينما تدبرنا لهم منزلًا صغيرًا في وسط المدينة الآمنة، وتكفل مساعدي بالاهتمام بهم، ثم التحق حازم بالمدرسة، أما عم الصغير فقد تدبرنا له عملًا في مؤسسة حكومية لتأمين راتب معاش له ولجدة الصغير، بعد عدة أيام من انتهاء المهمة، وعودتي إلى الفندق الذي نقيم به، طلبت عودتي إلى مكتبي، ثم طلبت من زوجي أن نهاجر ونترك البلد، حتى تعود الحياة إلى ما كانت عليه. لأن أعصابي لم تعد حينها تستوعب ما يجري حولي، أشعر وكأنه كابوس خيم فوق بلدي، اتجهت بنظرها إلى سعاد وقالت لها: أنت على الأقل وجدت زوجًا تهاجرين معه وتتحملين مشقة السفر، ليس مثل حالي. كان (مهند) يرتجف ويبكي ويقول كانت نزوَة (يا سعاد) صدقيني أنا أحبك كثيرًا، عندما دخل زوجي إلى غرفة نومي قبل بزوغ الفجر بقليل كان منهارًا بشكل شديد هزني من كتفي!! وهو مرتبك وخائف صوته خافت فيه بحة

المقهور، استيقظي يا(سعاد):هيا، نهضت مفزوعة من نومي، يا إلهي ماذا تريد؟ أريد التحدث إليك في أمر ما! أجل يا (مهند) تحدث ما الأمر!! تلك الليلة لم أكن مع أصحابي في مهمة عمل، ماذا ؟ أجل سأتكلم أنا لص ومجرم لا أستحق أن أكون زوجًا لك، ماذا تقول.؟ يا إلهي ماذا فعلت ؟ قال لي: لا أعلم ما حدث ابتسمت لي وهي تغلق باب المنزل.. تسمرت في مكاني جلست أفكر حدثت نفسي بأشياء كثيرة دارت بيني وبين نفسي حوارًا طويلًا جدًا عرضت رأيًا ، والرأي الآخر أفترض أشياء جميلة بيني وبينها، ثم اعترضت، وافقت عليها، رفضت ثم عللت، وحللت ما أرى وما مرَّ وما حدث منذ قليل، ولما احتدم الجدل بيني وبين نفسي وأضناني الأخذ والرد سكتت، وأنهيت النقاش برهة تسرب من داخلي شعاع خافت قسم رأسي نصفين. هززت رأسي فتساقطت أفكاري، شياطين صغيرة تثب أمامي فوق الأرض تكبر بقعة الضوء الواقعة من تعاطي الممنوعات، والمشروب اللعين، كنت منتشيًا حد الغياب عن الوعي فتظهر واضحة أمامي دققت بعيني وجحظت سحبت لساني بشفتي شعرت بقلبي يخفق كحمامة مذبوحة في صدري ، مزجت دخان سيجارتي بأنفاسي المتلاحقة والهواء القارص يلفحني وأنا متجمد مكاني برهة رفعت رأسي قليلًا، حملقت كانت تتجه نحو خزانة الملابس، تجمد الدم في عروقي فتحت باب درفة الخزانة، جف ريقي ونشف لساني من ذهول ما أنا فيه،

مررت يدها البيضاء الملتفة بين الفساتين المعلقة الملونة ، أمسكت قميصًا أسود تخشبت مكاني ارتبكت ابتلعت ريقي الناشف بصعوبة وهي تجلس أمام المرآة الضخمة، الفخمة. تدير جسدها الفاتن النافر الممتلئ بيدها البضة لتهيجني انتفضت احترقت طفت فوق مخيلتي فكرة مجنونة سيطرت عليّ تمامًا، وساعة الحائط تشير إلى الوقت،وهي تعزف قطعة موسيقية رائعة وأُخرى تدق أفكاري المجنونة تمزقه، انتصف الليل وأنا متصلب مكاني، فزوجها الليلة خارج المنزل، كعادته ولا يعود إلا بعد أيام فعمله يحتم عليه ذلك، دوّرت الأمر في رأسي جيدًا ولم أفترض في تلك المرة أو يعترض عقلي، ففكرتي المجنونة الملعونة تلح عليّ بقوة، مُنذ زمن بعيد رسمتها في مخيلتي جيدًا هززت رأسي مطمئنًا أن خطتي محكمة تمامًا لثمت وجهي، خبأت خنجري في ثيابي، احتطت وأنا أتسلق الجدار بسرعة، أغلقت الشرفة المطلة على الشارع، جلست أنتظرها في زاوية ما مرّت عليّ اللحظات دهورًا وصوتها يتهادى من الحمام بالغناء لينهش أعصابي كالكلاب المسعورة حبست أنفاسي اللاهثة وهي تلج الحجرة ..في لين وتؤدة .. وصوتها الناعم الحريري .. بير كل ج. ألقت الباب دونها .. فتنبهت لوجودي، ارتبك. ارتعدت، ابتعدت، انكمشت في نفسها فوثبت عليها وضعت يدي على فمها وضغطت خنجري في عنقها هددتها بصوت خافت مضطرب أجش، غيرت من

نبراتي حتى لا تعرفني انتفضت، أوجست خيفة مني سكتت، سكنت، رفعت يدي ببطء وحذر، ثم وقفت أمامها ألهث، تداخلت في بعضها ثم انزوت عند الباب المغلق تجمع بعضها المرتجف بين يديها المرتجفة انكمشت اقتربت منها وهي تلهث كالكلب وأنا ألتهمها بعينين واسعتين تخرج نارًا من بؤبؤها مالت نحو الدولاب المفتوح أخرجت علبة مصاغها ضربتها بيدي فوقعت على السرير نظرت إليها مبعثرة مشدوهًا في عته فاغرًا فاهي، أمسكت بيدها بقوة ارتبكت انتفضت توسلت إليّ أن أدعها وآخذ كل مصاغها .. حركت رأسي رافضًا بكت وهي ترجوني، نهرتها بحدة هدهدتها بين يدي تحننت ، انتحبت ثمّ سكتت. مستسلمة لأنفاسي وهي تحرقها حتى النخاع أحست بأصبعي كقطع من الجمر وهي تمشط جسدها البلوري المتشرب بالحمرة وتعبث بشعرها الليلي البهيم، تأوهت أنّت قاومت دفعتني بكل قوة بعيدًا عنها ففشلت ثم انحدرت الدموع ساخنة على وجنتيها التفاح. اعتركت حتى استسلمت يداها، وبعد شدٍ وجذب وعراك مرير هوى الخنجر من يدي على الأرض ثم امتزجت الأنفاس حامية لاهثة متلاحقة، حاولت إماطة اللثام عن وجهي، لكني رفضت، انتفضت نهضت وقبل أن أنصرف زغللتْ عينيّ قطع الحُلي المتناثرة عبأتها في جيبي، وفررت هربًا هبت نهضت هرولت صرخت، استغاثت فأقبل الناس عليها من كل اتجاه، فهالهم ما رأوا، واقفة لا شيء يسترها غير

شعرها الطويل المبعثر على كتفيها المرمر ونهداها يترجرجان وهي تخمش وجهها بأظافرها تولول ، وتلطم في صراخ هستيري حتى انهارت تمامًا والناس حولها يتدافعون يزدحمون يعتركون لكي ينظروا، امرأة ما، انبرت من بين الحاضرين، حلت شالها الأسمر ألقتهُ عليها بسرعة وأخري لفتها بملاءتها وحماليها إلى داخل المنزل ومنعن الرجال من الدخول ووقف الناس ينظر بعضهم بعضًا وهم مندهشون حائرون ويسألون في جنون ؟عما حدث؟! في اليوم التالي، حضر زوجها أخبرته زوجته؛ بأن لصًا سرق مصاغها وهرب .؟!! أخبر الشرطة وهم الآن يبحثون عني، سأقضي أعوامًا خلف القضبان، وأفصل من عملي سأصبح عاطلًا أتسكع على الطرقات وعلى المقاهي وأين المرأة وزوجها لم يستطيعا أن يواجها الناس
باعا البيت ورحلا إلى مكان بعيد، لا يعرفهما فيه أحد.!! أنهت (سعاد) كلامها وهي تتحسر على حالها وسنين زواج ضاعت مع نزوات زوجها الفاشلة،وأنا أقلب في جمرات النار وقطع الخشب التي أمامي مر(ناصر) يحمل آلة العود، يعزف عليها، يلبي طلب كل من يطلب منه العزف، يغني لهم بصوته الجميل البديع، تعرفت عليه، عندما جئت إلى هذا الشاطئ، كان يعزف ذات مرة لأحد العائلات السياحية التي تزور الشاطئ في عطلهم الأسبوعية أو السنوية، صوته جميل وحنون يشبه أصوات المطربين القدماء. سمعته يغني:

(فوق غصنك يا لمونة للفنان فريد الأطرش)
كان إيقاع الموسيقى مع صوت البحر رائعًا جدًا يخطف الإحساس من أعماق القلب، عندما انتهى من الغناء، تعارفنا، سألته من أين أنت ومن أين جئت قال لي: أنا اسمي ناصر وجئت من شمال سورية، كانت حياتي متعبة وقاسية هي صرخة حزن وألم.
فأنا من جردتني الحياة هويتي و نسبي وحسبي، استخلصت الألم من روحي، في كل مرة أقول لمَ جئت إلى هذه الحياة؟
هذه العبارة أرددها كل يوم عندما أستيقظ من النوم.
شاءت الأقدار أن يبقى ناصر وحيدًا منعزلًا عن العالم وما يدور حوله بعدما هجر أبوه أمه وتركها مع ثلاثة أولاد تتصارع مع الحياة لتربيتهم ووضعهم في بر الأمان من سلبيات المجتمع وخبثه بالابتعاد عن أولاد السوء، إلا أن المصائب كانت أكبر منها بكثير؛ انفصالها عن زوجها وتحمل مسؤولية أبنائها... يحادث روحه وهو يذهب إلى الحمام كل صباح: ألم يفكر أبي قبل الزواج من أمي بأنهما لا يناسبان بعضهما البعض؟ ولكن كيف؟ ولمَ ؟ ولماذا أكملا الطريق معًا وأنجبا أختي وأخي الصغير وهي تعلم أن أبي سيتركها؟.
وهي أيضًا تكرهه! لِمَ أنجبا الأطفال؟
بِمَ كانا يفكران قبل إنجابنا؟ هم أنانيان ولا يفكران سوى بشهواتهما الملعونة!.

التزم (ناصر) البيت وشاركته أحزانه آلة العود إذ كانت تحكي آلامه وأحزانه، وعزلته من خلال ألحانه وغنائه...ولكن شيئًا ما يقطع عليه تلك الأوقات الجميلة في خلواته مع أفكاره وأحلامه عندما يسمع ضحيجًا وصراخًا قادمًا من نافذة جارته في البناء المجاور ، المطل على فناء منزله

ريانة، يقف حائرًا وهو يسمع صوت صراخها وضرب زوجها لها.

يقول لنفسه: هل أصعد له وأفجر رأسه؟ ولكن ما علاقتي بها هي ليست تخصني ولا صلة قرابة بيننا.

كانت تطل من نافذة منزلها بشعرها الأشقر الطويل وبسمتها الجميلة! عندما تأتي عينها بعينه ! فيرف قلبه، وينتظرها حتى تعود مرة أخرى عند النافذة، تطورت الأحداث إلى أن التقيا عند سفل درج البناء وأصبح التواعد داخل منزله، إلا أن المحادثات التي كانت تدور بينهما فهم منها أن زوجها يصطحب لها أصحابه لفعل الرذيلة معها وهي تقاومه بكل إرادتها وتهدده أنها ستخبر أهلها وتبلغ عنه الشرطة، بدأت حكايتهما في لحظة احتضان حميمة وهي تشتكي له، ثم تطورت العلاقة بينهما، كانت تأتي إليه كل يوم عندما تذهب أمه للعمل، وإخوته في المدرسة، تقول له : أن زوجها في غيبوبة نوم (من السم الهاري الذي يتناوله من الحشيش) ثم يبدأ الضحك والمزاح وأصبحت العلاقة بينهم أكثر حميمية ورومانسية ووقع في حبها

يقول لها: إنك تعوضينني عن حنان أبي وفقدانه، هل يعلم (أبي) إني أشتاق له؟ كم أتمنى أن يكون بيننا في المنزل ويساعد أمي في تحمل أعباء الحياة.
ولكنه فضل حياة أخرى عنا أنه منعزل مع زوجته الأخرى وأبنائه وكأننا نحن لسنا من أنجبنا... غريبة هذه الحياة يهتم بأبنائه الآخرين، ويحبهم ويعيشون حياة رفاهية ولا ينقصهم شيء. أتعلمين لماذا يا (ريانة) لأنه يحب زوجته ويكره أمي.. أجل الزوج الذي يحب زوجته يعشق أولاده أكثر ونحن لا يحبنا لأنه لا يرغب بأمي تزوجها فقط لأنها ابنة عمه من أجل العادات و التقاليد.
ما كان ذنبنا نحن في هذه الحياة أن ننحرم من حنان الأب فقط من أجل عاداتهم السيئة، وأمي تعمل ليل نهار في مصنع الزجاج، لكي تطعمنا أليست هذه الحياة قاسية؟ تقول له (ريانة) :أجل يا حبيبي وأنا كنت طفلة عندما زوجوني لهذا ا(لحقير) حتى لا أكبر ويفوتني قطار الزواج وأصبح عانسًا مثل أختي الكبرى.
كل يوم وهم على هذه الحال، إلى أن يحين موعد عودة إخوته من المدرسة، وهي تعود لبيتها مودعة إياه بقبلة عميقة عند الباب، جاءت له مرة وهي تحمل بيدها كاشف الحمل وتقول له أنني حامل منك. صعق (ناصر) واصفر وجهه وتغيرت ملامحة وأصبح في حالة ذهول عميقة أخذته إلى عالم آخر، ثم نهض عن الكرسي وبدأ يصرخ بوجهها هذا الولد ليس لي. أكيد من

زوجك، أو أحد الرجال الذين كنت تعاشرينهم، لا... لا أقسم لك أنه منك لم يلمسني أحد غيرك منذ عرفتك، وزوجي لا ينجب أطفالًا، تزوج قبلي اثنتين ولم يرزق بطفل، ترك ناصر البيت واختفى، وماذا إذا علم زوجها بالأمر عندها سيبتزني لدفع المال له مقابل سكوتي، نعم، وكيف أتحمل مسؤولية هذا الطفل بدأ يشك في الأمر؟

أجل، زوجها كان يصطحب لها رجالًا إلى المنزل، قد تكون هي حامل من أحدهم، ولكن (ريانة) تخبره أنه ولده هو، بدأ ناصر يغيب عن البيت لفترات طويلة ولا يعود إلا إذا احتاج نقودًا، سرق من مصروف البيت، ثم بدأت أغراض البيت تنقص، لاحظت الأم أن أشياء كثيرة من أدواتها الكهربائية قد فقدت، كان يأخذها ويبيعها ليشتري السجائر والحشيش.

حاولت أمه منعه من خروجه الطويل خارج المنزل وإدمانه على السجائر والحشيش ولكنها لم تستطع لقد فات الأوان، لم تجد سوى حل واحد أن تخبر صاحبة المنزل الذي تعمل عندها بعد خروجها من مصنع الزجاج، هي امرأة تعرف الكثير من الحياة وغنية ولها معارف كثيرة تستطيع أن تساعدني.

تقول السيدة صاحبة الجمعية الخيرية: لا تقلقي يا أم ناصر أجل أنا عندي معارف كثيرة ونعمل في جمعية خيرية لمعالجة الشباب من الإدمان، لا تقلقي يا (أم ناصر) سنحل لك هذه المشكلة، لا تخافي بإذن الله تعالى

سيعود ناصر لك من جديد شابًا مجتهدًا وقويًا لا تقلقي من شيء أنا معك.
قالت لها: اتركي هذا الأمر لي، هناك مصح لمعالجة الشباب من الإدمان وأنا سأساعدك في حل هذه المشكلة.
ذهب ناصر إلى المصح للمعالجة بعد عراك شديد وألم مع والدته وإقناعه أنه الحل الوحيد للخروج من هذه المحنة.
في هذه الأثناء (ريانة) استطاعت أن تجد بين أوراق زوجها أسماء أصحاب المخدرات الذين يعمل معهم وإلقاء القبض عليه، ذهبت(ريانة) لزيارته في المصح وأخبرته أنها ستقوم بعمل فحص للجنين عندما يولد، تثبت له أبوته له. ضحك (ناصر) بصوت خافت وقال لها: لا داعي لعمل أي شيء حتى لو أنه ليس ولدي عندما أخرج من هنا سنتزوج وأعتني به وبك وأهتم بتربيته لأنني أحبك وأحب كل شي منك. بعد مغادرة (ريانة)من زيارته، جاءه المحقق، يقول له الضابط:
اسمع يا(ناصر)ستخفف عليك العقوبة إذا اعترفت بكل شيء، يردد ناصر بهمس، أجل سأقول كل شيء ولكن هناك طفلًا قادمًا كان بفعل الرذيلة، و هي لا ذنب لها بأن أفضح أمرها.
سنتولى الأمر لا تقلق، سنحاول بتخفيض سنوات السجن لك، والعمل على إصلاح ما فاتك فأنت شاب في مقتبل العمر، والحياة أمامك طويلة، اسمع سأخبرك أمرًا مهمًا، ولكن أريدك أن تكون قوياً (جارتك ريانة) اعترفت بكل

شيء عن حملها وعلاقتك بها وزوجها) ، وأيضًا هناك خبر مؤلم جدًا ولكن أنا مضطر لقوله لك: أن أمك! أمي ما حال أمي؟ بكل أسف شديد قد ماتت بجلطة مفاجئة، يرتفع صوت البكاء والندم.

أجل يا ولدي، لذلك ليس أمامك حل سوى بقول الحقيقة وأن تعترف مِمن كنت تجلب الحشيش ومن هو الموزع؟ لأن أباك عاد من السفر وباع منزلكم وسيدفع الكفالة بعد أن يخفف من حكمك.

أجل سأقول كل شيء، أصلاً بعد موت أمي لا شيء يستحق أن أخفيه، اعترف ناصر بكل شيء، عاد إلى منزله وتزوج ب(ريانة) ولم شمل العائلة من جديد، وأنجب طفلته الجميلة وأسماها (سارة) على اسم أمه ولكن عندما اندلعت الاشتباكات، هاجر مع زوجته وطفلته إلى هنا وبدأ يعزف من جديد، وزوجته تعمل مربية للأطفال عند إحدى العائلات هنا.

قالت دلال وهي امرأة في بداية العقد الرابع من عمرها من مدينة حلب وتزوجت من أحد معارف صديقتها عندما كانت في سورية وعاشت أزمة الحرب
نسمع قصص وأحداث كثيرة إما أن نصدقها أو ننكرها، حسب نوع الفاجعة التي تتكون منها المصائب، لذلك نكتب عنوانين لحياتنا، كل يوم يمر عليك بسلام اكتب: أنا سعيد أنا متفائل أنا بصحة جيدة أنا مرتاح لأنك باختصار لن تعرف قيمة هذه الأشياء إلا حين خسارتها، والشعور بكابوس الخوف والرعب والقلق وقت المصائب، أما الثواني التي تمر بلمح البصر عندما تكون في حالتك الطبيعية، ستمر عليك هذه الثواني بالساعات أو بالأيام كأنها جبل ثقيل يلف تلك اللحظات، لأن الحرب ستحطم كل شيء جميل وذا معنى، كانت (دلال) خارجة من مكتب الإرشاد النفسي للأطفال، هي تعمل موظفة هناك، ألقت علينا السلام، فقلت لها: اقتربي واجلسي معنا، عرفتها على الجميع وكانت على قرابة بعيدة مع السيدة (شفيقة)، من ذات البلدة في منطقة الحرش، كيف أن جبلًا إلى جبل لا يلتقيان، و لكن إنسانًا لإنسان يلتقيان. سألتها كيف وصلت إلى هنا؟
قالت السيدة (شفيقة) : أنا هنا منذ بدء الأزمة، أجابتها السيدة(دلال) سمعت بقصتك مع زوجك، حزنت عليك كثيرًا،
قالت لها السيدة (شفيقة): وأنت كيف وصلت إلى هنا؟
أجابتها السيدة (دلال): عندما حدث التهجير لم أستطع

سوى حمل أطفالي بين يدي حتى رضاعة الحليب لطفلي الرضيع لم أنتبه لها كي أحملها معي، لملمت أطفالي الستة وهربنا من الجدار الذي وقع على الأرض إثر قنبلة متفجرة، كانت عيوننا ترمق أي مكان سالك للهرب، من شدة الخوف والفزع نسيت الحقيبة التي فيها أوراقنا الشخصية كل ما فكرت به هو الرقم ستة، ألا وهو عدد أطفالي الصغار، المتلاحقين في أعمارهم، كان كل همي هو النجاة وكيف السبيل للهرب ، وألا يصيب هؤلاء الصغار أي مكروه، كان الفزع والخوف والبكاء والصراخ هو الشيء الوحيد الحاضر في ذلك الوقت، ولكن ابني (حاتمًا) الله يرضى عليه، تذكر الحقيبة، كان يعلقها على رقبته طوال الوقت، واصطحبها معه، أيضًا هو صغير في الثالثة عشرة من العمر، تكمل حديثها السيدة (دلال) رغم أنني كنت أصرخ عليهم هيا اركضوا ستقع قنبلة أخرى، لم أكن الوحيدة التى تصرخ الكون كله كان يصرخ، الغبار والركام وحالة الهلع تلم بالمكان .

أما الطائرة كانت كأنها تبتسم من السماء، تارة تهبط وتارة تعلو كأنها في عرض سيرك تتلاعب بنا وترى وجوهنا وهي مرعوبة من شدة الخوف، هي تبحث عن المتمردين الذين يرمون القذائف والصواريخ، وفي كل اللحظات كان الرقم ستة حاضرًا على طرف لساني وعيني وذاكرتي تتجول بين رؤوس أولادي الستة خوفًا أن يفلت رقم من بين هذه الأرقام وعندها أجن وأفقد

تركيزي، أردده وعيناي على أطفالي أعيد العد لهم كل ثلاثة ثوانٍ حتى لا أفقد تركيزي، و لا أفقد أحدًا منهم، يا سخرية القدر، لقد أصبح أطفالي الذين هم شمعة حياتي ونور عيوني أرقامًا لا أسماء ولا روحًا ولا جسدًا، لقد نسيت أسماءهم في تلك اللحظات، كان كل همي هي سلامتهم، وأن أصل بهم لبر الأمان والسلام، عندما وصلنا أنا و أطفالي الستة، إلى الجهة الأخرى من مكان الاشتباكات، كان هناك حاجز يخلي المنطقة من البشر خوفًا من هجوم المتمردين علينا مرة أخرى، اسمه حاجز النسيم، رأيت أفواجًا من الناس في حالة يأس وبؤس، الكل مذهول برعب شديد.

عيونهم ترقص في مكانها تبحث عن أي شيء يخفف حدة الفاجعة، والبكاء والصراخ والإغماء إما من شدة العطش أو من الإصابات التي حدثت أثناء التفجيرات، أو من فقدان عزيز وغالٍ، وهدم للبيوت التي بناها أصحابها عرقًا وجهدًا وتعبًا دهرًا بكامله.

تقول السيدة دلال: حتى زوجي تركني عند ولادتي بابني الثالث وذهب للخليج لكي يشتري لنا منزلًا كبيرًا يسعنا جميعًا.

وفي كل إجازة أرزق بطفل جديد حتى أصبح عدد أولادي ستة، التوأمان جوري وبودي، وحاتم وماهر ونغم وعمر الولد الرضيع آخر العنقود أكمل عامه الأول عندما وصلنا لمورلي ذلك اليوم لن أنساه حتى مماتي..

كان (الله) في عون هؤلاء الجنود البواسل، وحماهم من كل مكروه، هم أيضًا شباب في مقتبل العمر، وضعوا في وضع الدفاع والهجوم لحماية الأرض والعرض والشرف، كنت كلما أمر بجانب حاجز وأرى وجوه الجنود المتعبة المتهالكة من شدة الحر أو البرد ألعن ألف مرة كل من اخترع كلمة حرب ومن يديرها، لا هم ولا نحن كنا نحتاج لها.

في ذلك اليوم سنة ٢٠١٣ عند هروينا من حوش بلاس أنا وأطفالي تحولت حياتنا أذكر كان يوم السبت، من شدة ما جالت عيناي ويداي بين أطفالي الستة وأنا أتلمس رؤوسهم الصغيرة وأمسح عيونهم من الدموع والغبار، وصوت أنينهم في أذني يضرب مثل سكاكين الجزار في المسلخ، والرعب الظاهر على شفاههم و أجسادهم التي ترتجف، كان يومًا لا يوصف، كلما جاءت ذكراه، أتمنى أن أنتزعه من جذوره في ذاكرتي وأحفر قبرًا له وأدفنه فيه.

عند وصولنا إلى مكان الحافلة ظهر رجل ذو لحية طويلة شيئًا ما فيها القليل من الشعر الأبيض، لا يرتدي الزي العسكري ويقول بصوت مرتفع: صفّوا بالدور هيّا.

وما زال الرقم ستة هو الصوت الوحيد على طرف لساني وذاكرتي، وقفت في مكاني وأطفالي يتشبثون بي خوفًا أن يفر أحد منهم ويصيبني الجنون والهلع على إثر فقدان أحدهم.

هيّـا صـفّوا بالـدور ويعـود الصـوت مـن جديـد حتـى تسـتطيعوا أن تصـلوا لمكـان الحـافلات، وكـان الـدور طـويلًا، وأصـبحت الشـمس تميل للغـروب، حينهـا حـان دورنـا رفض الرجل الذي قام بتنظيمنا أن نصعد بها إلـى الحافلـة أنـا وأطفـالي السـتة، قـال: لـم يبـق هنالـك أمـاكن، صرخت بالرجل على الحاجز الذي صنعه لنـا، لمـاذا لا تريـدنا أن نخـرج أنـا وأطفـالي ؟ لأننـا لا نملـك المـال لينقلونا في الحافلة الخضراء؟

رغم أنكم قلتم لنـا أنهـا لا تحتـاج للمـال هـي مـن ضـمن التبرعات لقوات حفظ السلام انتابـه شـيء مـن الجفول، قال لي:

لـمَ تصـرخين؟ قلـت لـه: لأنـك كـاذب أريـد أن أصـعد أنـا وأبنـائي السـتة، نظـر إلـى يـدي وقـال: معـك ذهـب كيـف تقـولين أنـك لا تملكـين المـال؟ قلـت لـه: أتريـد خـاتم زواجي؟ وأنا في حالة هلع شديدة خلعت محبس زواجـي وقلت له أنه عيار 24 تفضل خذه، تملق به طويلًا وكـأن هذا لا يكفيه، ارتميت على يده وبدأت أقبل بهـا وأترجـاه أن يـدعنا نصـعد إلـى الحافلـة، وأنـا أتفقد أطفـالي السـتة، وهـم يصـرخون ويبكـون، ثـم اقتـرح أن أتـرك لـه ابنـي البكر حاتمًا ثم يرسله لي، بحجـة أن الحافلـة لا تسـع لكل هؤلاء البشر، صرخت بوجهـه من جديد لـن أصـعد إلـى الحافلــة إلاو أنــا و أطفــالي الســتة معــي، وعلــى إثــر الصراخ والنواح ظهر رجل يرتـدي الـزي العسكري ذو رتب على كتفيه، قـال: مـا بـك ياسيدتي؟ لـف الاصـفرار

وجه الرجل قلت له أعطيته خاتم زواجي لأصعد في الحافلة أخذه ولكنه رفض أن يصعد ولدي حاتمًا معي، قال سيرسله لي في الحافلة القادمة بعد قليل وأنا لا أريد أن أصعد، إلا وأبنائي الستة بجانبي، استدار باتجاه الرجل، قال لي: هذا هو ؟ قلت له: أجل هو بذاته، وبسرعة، وبأسفل السلاح الذي كان يحمله معه ضربه على وجهه، نفر الدم من أنفه، وبصق عليه، قال له: يا أيها الجبان، تستغل البشر وتسلبهم أموالهم وأبناءهم أنت مع من تعمل؟ خذوه من هنا أمر جنوده الذين حوله، وقال لهم: أعيدوا كل ما أخذه هذا النذل من الناس، عندها شعرت أن الحياة ما تزال بها أناس طيبون وما زلنا أحياء.

كانت لحظات قاسية ومتعبة أن نعيش في وطننا و نكون سجناء الرأي والتعبير وتعتقل أفكارنا، وأجسادنا لتعيش مصالح الأوغاد.. عندما وصلنا إلى هنا في بلغاريا ترك زوجي عمله في دولة الإمارات وجاء معنا وأقام مركزًا لرعاية دعم الأطفال والإرشاد النفسي، عدت وسألت السيدة (دلال): لِمَ أنت متعبة ويداكِ ترتجفان ؟ قالت لي: هذه البلاد كأنها جحيم لا تطاق كل شيء فيها جنون، البشر هنا في تعرٍ بلباسهم وأفكارهم وعاداتهم لا تناسب أفكاري ومعتقداتي، وأنا لا أستطيع العودة إلى سورية بسبب الأوضاع هناك، ولا أستطيع أن أبقى هنا.. شيء يقودني إلى الهستيريا، والشيء الأكثر جنونًا أن زوجي وأبنائي لم أعد أستطيع التفاهم معهم وتغيرت أطباعهم

وسلوكهم، منذ أن أتينا إلى مورلي الكل في اتجاه من الآخر.
ذات يوم وأنا عائدة من السوق، دخلت من باب المنزل سمعت جلبة في المكان حاولت وضع الأغراض التي كانت بيدي على مهل لأسترق السمع من أين مصدره ، اتجهت نحو الصوت بخفة و بكل هدوء، تعالى الضحك والكلام الجميل، حاولت فتح الباب كان مقفلًا، بدأت بالطرق عليه، لم أعد أسمع لا صوتًا ولا ضحكات، ركضت نحو المطبخ لأجلب آلة حادة أفتح بها الباب العالق وأتعرف على الأصوات الصادرة من غرفة نومي، عدت مسرعة، رأيت الباب مفتوحًا وخاليًا من أي أحد.
كاد أن يصيبني الجنون في لحظتها، أخذت هاتفي من حقيبتي واتصلت بزوجي، رن جرس هاتفه من تحت السرير، عندها أدركت أنه يخونني وقد هربا معًا عبر الفناء الخلفي للبيت، وعندما عاد سألته أين كنت؟ هل هو أنت الذي كان في الغرفة
أنكر الأمر ولم يعترف بشيء.
أراد أن يظهرني بأني أهلوس أو أصابني الجنون، بدأ في الصراخ لأنني لم أنتهِ من إعداد الطعام له... هددته بأنني سأترك البيت وأعيش وحدي ..ضحك بصوت عالٍ وقال لي: هيا اذهبي ما الذي يمنعك تفضلي بالخروج وفتح باب المنزل وأراد طردي منه مع مجيء أبنائي الصغار من المدرسة، حينها خرج وغاب لمدة

يومين وعاد إلى المنزل وكأن شيئًا لم يحدث معنا...
ضحكت وسخرت من نفسي والأيام التي تمر بها حياتي
ماذا تعني الحياة بالنسبة لزوجي أو لي أو لغيري؟ قد تكون بالنسبة لي أصبحت لا شيء، أما بالنسبة لأغلب باقي البشر هو المال والجاه والسلطة والمتعة، وماذا يعني أن أعيش الحياة برتابتها و بالملل اليومي لها، أصبح الشيء الأهم الآن عندي الآن هو الاهتمام بصحتي أو أن لا يصيبني أي مرض،كما أصاب أمي المسكينة عاشت حياتها وهي تهتم بنا وبالعائلة أو بالكثير ممن هم من حولها الذين غيبهم أو خطفهم الموت عنا.
ففكرت قد أكون بحاجة لمساعدة أحد هي
فكرة خبيثة تقودني للجنون
كل الكلام الذي يتفلسف به بعض البشر عن الحياة ، وروتينها وشغفها ومللها وصخبها ..كلها أمور فقدت طعمها عندي
ها هم أبنائي وبناتي منذ مجيئنا إلى مورلي الذين أنجبتهم وتحملت عناء سفرهم، وحاولت تعليمهم وإدخالهم المدارس الخاصة يطلقون في وجهي أبشع العبارات على أنهم متفوقون عني في الحياة والعلم والمعرفة وكل شيء، و بأنني جاهلة من القرن الماضي نعم هل هو الصراع بين الأجيال؟أم هو ضريبة الأمومة أن تسمح لولدي أن ينهب كل ما في جيبي ليلعب في صالات التسلية ومن ثم يقول: أنت يا أمي مسكينة، حتى

فكـرة أننـــي أم صـــالحة أصـبحت تحبطنـــي وتشـعرني بالاكتئاب، رغم فكرة الاكتئاب فكرة مجنونة بالنسبة لـي وبعيدة عنـي وأننـي أرفضـها أحـاول أن أعـود إلـى أيـام كنت أمسك الكتاب وأقرأ فيه أو أذهب في رحلة استجمام مع عائلتي، الآن لم أعد أرغب في القراءة أو المطالعة، أو التحدث مع أحد كل شيء حولي سخيف، رغم شغفي وجنـوني الـذي كـان بالحيـاة ورغبتـي فـي اكتشـاف كـل شـيء كـأنني فتـاة فـي المراهقـة، وأنسـى أحيانًـا أننـي تخطيت سن الأربعين والمتعة والشغف منذ وقت طويل، والآن أنا أفكر في العودة إلى حلب.

نهضـت مـن مكـاني وقلـت للجميـع: بـدأت الشـمس تشـق نورهـا مـن خلـف عتمـات الليـل ونحـن عنـدنا عمـل كثيـر عند بدء الصباح

وأكملت كلامي ب : حسنًا الآن.. يـا أصـحابي أن يجتمـع الألم والعذاب والفقر والمرض بآنٍ واحد هذا أصعب من الموت بحد ذاتـه. إذًا مـا رأيكم أن نأكل ؟ ألـم تجوعوا ؟ أنـا جعت كثيـرًا، سـأذهب لأجلـب لكـم الطعـام مـن مـنكم جـائع؟ بمـاذا ترغبـون قالـت كريسـتين: أنـا آتيـة معـك انتظريني.

ذهبنا لنحضر لهم الأشياء التـي طلبوهـا، ونعـود لحياتنـا اليوميـة، لينتهـي الماضـي بكـل أحاسيسـه وتفاصـيله، فـي طريقي للمطعم أنا و(كريستين) التقيت مـن جديد بالسيد (ذهب)...اعتـذر منـي لأنـه تركنـي وحـدي فـي الحانـة وذهب مع زميله في العمل لأجل أمر مهم حدث معه فـي

المصنع هكذا قال. قبلت اعتذاره وأخبرته: أننا ذهبنا أنا وصديقاتي إلى الشاطئ.
قلت له: متى ستخبرني عن السر الموجود في الزجاجة ؟ ضحك وعيناه تلمعان و قال لي: عندما نلتقي أخبرك بكل التفاصيل، قلت له: هل أنت جائع ؟ أتريد أن تأكل معنا؟ قال لي : أجل سأمشي معك إلى أصدقائك.
من جديد دعوته للبقاء معي، أخذنا الطعام، وعدنا معًا أنا والسيد ذهب إلى الشاطئ وعند عودتنا إلى صديقاتي.
رأيت رجلًا ينام قرب الحاوية، تناوبت على رأسي عشرات الأسئلة؟ كيف يصل مثل هذا الشخص إلى الحالة التي هي عليه الآن أن ينام بجانب القمامة وكأنه منزله النظيف الأنيق ؟ نحن هنا في مكان بعيدين عن الحرب والقصف نحن في بلاد الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، وأي حقوق ؟ وتجد هؤلاء البشر منتشرين في الشوارع، يصدح ذلك الصوت الخافت من وراء تناقضات الحياة؟ بأن الفقر ليس في عدم امتلاك الطعام أو اللباس أو امتلاك لمنزل جميل، هذا فكر بسيط الفقر هو إحساسك أنك لا تملك شيئًا وحولك كل شيء.
لقد ضاع نصف عمري وأنا أبحث عن مفهوم السعادة بعيدًا عن الروتين والملل...كنتُ أظن أن السعادة هي في نيل الشهادات والجوائز واللعب والضحك والتفوق والمنافسة بين الطلاب والتباهي بما حصلت عليه و بأنني كسبت الكثير من العلم والمعرفة والثقافة، ثم اكتشفت بعد ذلك أنني أسعى للجلوس وراء مكتب

مُكدس بالأوراق، والتواقيع وأنني موظفة بسيطة تسعى وراء راتب شهري يحميها من الفقر والعوز، حاولت جاهدة البحث عن السعادة من جديد، ظننتها تكمن في الزواج، وبناء منزل جميل أستريح به من يوم طويل، للاسترخاء والقيلولة والاستجمام والضحك واللعب مع زوج يحبني ويسمعني عندما أريد أن أتكلم معه، ولكن خيبات الأمل لازمتني طوال الوقت، هو مصغٍ لسماع صوت المذياع والتلفاز والنظر في فساتين ومغريات الفنانات والمذيعات والتنقل بينهن كأنه فارسهن الجامح، حاولت جاهدة بناء هذه المملكة الصغيرة حتى أصبحت وكرًا للتنظيف والأعمال الشاقة التي لا تنتهي من غسيل وكي وترتيب ومسح الغبار كل يوم، كأنني أمسح يومًا ثقيلًا وكارثي من حياتي.

عدتُ من جديد للظن بأن الأولاد هم سبب السعادة وجنة الحياة على الأرض، أتفاجأ بشيء غامض وصاعق أن الأولاد يصرخون ويبكون بوجهي منذ الولادة وكل يوم و في كل لحظة لفرض حكم الأمر الواحد علينا، لتلبية طلباتهم وحاجياتهم، وذلك بعقابهم ليّ!! لأنني أتيت بهم إلى هذه الحياة المملة التافة من وجهة نظرهم، وهم لا ذنب لهم في هذا الأمر، غير أنهم موجودون معي رغمًا عنهم ومجبورون في هذا الأمر.

هل كانت خطيئتنا أننا أنجبناهم وجئنا بهم إلى هذا الكون الذي لا يرحم؟ ونحن من ندفع ثمنها الآن ثم يرحلون مع أصحابهم أو أزواجهم أو زوجاتهم.

يودعوننا ويصرخون بالحياة المقرفة، التي عاشوها بأشياء سخيفة قدمت لهم من قبلنا، عدت للبداية لأبحث عن السعادة في ترتيب الأمور والأولويات من جديد قد تكون موجودة في مكان ما... ما بين أشيائي القديمة من أصحاب و أقرباء

قدماء و صور وذكريات وأحلام، ولكنني لم أجد سعادتي بين تلك الأشياء، خيل لي حينها، أنني أركض وراء وهمٍ وسراب خافت كالسراج في أقصى الصحراء الموحشة.

عندها أدركت أن الحياة تقدم لنا كل هذه الأشياء من طفولة، وبراءة،ومراهقة، وشغف، وحب، وعشق وبكاء ودموع وصراخ وغضب وألم وأمومة، وأزواج وأطفال، وعائلة وكل شيء موجود فيها، للاستمرار فيها فقط،والبحث عن المجهول لنبقى على قيد الحياة، وهنا وعدت نفسي من جديد، أن لا أبحث في الماضي، لن أجد ما فقدته.

سمعت صوت كريستين تقول لي: لقد بدأ الضوء يسطع، اتجه نظرهم جميعًا نحو السماء ، قالت عبير ما أجمل ذلك الشعاع القادم من السماء بالكاد يشق نوره من خلف عتبات الليل، وصلت إلى الشاطئ رأيت الجميع على حاله، يتأملون الموج الهائج، أعطيتهم المشروبات و تناولنا الطعام، وودعتهم على أمل أن نلتقي مرة أخرى، قلت لهم: حسنًا يا أصدقائي سأذهب للنوم بعد ساعتين عندي يوم طويل وشاق، اتجهت بنظري نحو

السيد (ذهب) مودعة إياه، على أن نلتقي من جديد ويخبرني اللغز، المحبسوس في قعر الزجاجة.
قال لي: سنلتقي عما قريب.. قلت لهم: حسنًا إلى اللقاء يا أصدقاء.

بعد مرور عدة أيام على ذلك اليوم الغريب العجيب، حدث شيء جديد وجميل، كنت نائمة في سبات عميق، كان يومي شاقًا ومتعبًا، حدثت عدة مشاجرات في المجلة التي أعمل بها، خلافات لا تنتهي، التنافس بين المدير ونائبه ومن سيجلس مكان الآخر كالعادة التخوين والابتزاز، هي الأكثر استخدامًا في هذا العالم، ورئيس التحرير الذي يلقي عليّ نظرات الازدراء كلما رآني.

رن جرس الجوال، بحثت عنه في جانبي، عين مفتوحة وأخرى مغمضة، من الذي يريد إزعاجي عند منتصف الليل غضبت كثيرًا من شدة تعبي، في المرة القادمة عندما أخلد للنوم سأضعه بموضع الصامت حتى لا يزعجني أحد.

أجل، يجب أن أضعه على الصامت قبل أن أنام، يا قدري إنه صوت السيد (ذهب) من جديد استنفرت كل حواسي وأصبحت على استعداد تام لأسمع كل كلمة يقولها، صوته كالسيمفونية تداعب خيالي.

لِمَ كل هذا الإحساس الغريب الذي انتابني عندما سمعت صوته ؟ بعدما قطعت الأمل في اتصاله بي، مر وقت طويل على آخر مرة التقيت به، عندما ودعته مع صديقاتي على الشاطئ.

ألو....أللووو

هل... تسمعينني أنا "ذهب"..؟

نعم.. نعم .....أسمعك جيدًا.

قلت له: كيف حال سيد ذهب؟

هل أنت بخير ؟
قال لي : الحمد لله، هل نلتقي ؟
أجبته في الحال: أجل نلتقي ...
قال لي: سأراك بعد ساعة في الحانة (هارموني).
تواعدنا وقفل الهاتف، نهضت مسرعة من على السرير وبدأت في تجهيز ما أرتديه.
ماذا أرتدي يا ترى؟ اللون الأحمر، أم الأصفر، أو الفستان الأزرق ....لكنه مغرٍ جدًا ... لا يهم إنه السيد(ذهب). ستظهر مفاتني أخاطب المرآة التي أمامي.
شاب جميل جدًا فيه كل المواصفات التي تعجب بها أية فتاة.
انطلقت بكل حماسي إلى المقهى (هارموني) وجدته ينتظرني، ألقيت عليه السلام، وجلسنا في زاوية الحانة، جاء النادل، سألني ماذا أشرب، قلت له : فنجان قهوة لو سمحت، حسنًا إذًا ...دخلت معه بالحديث مباشرة...كاد الفضول يقتلني.
هل تريد أن تقول لي ما السر الموجود في الزجاجة التي رميتها في البحر ؟
ابتسم لي وشاحت عيناه نحو البحر المطل من نافذة المقهى.
بدأ بسرد حكايته: عندما كان في دمشق،
كيف كان المكان جنونيًّت وهستيريًا.

قال لي : بدأنا نفقد الأمل أنا وصديقي (يوسف) كانت لحظات و هلوسات قاتلة دارت بيننا طوال الوقت، قلت لصديقي
(يوسف) بعدما فقدنا أمر نجاتنا وسألته: كم رصاصة بقيت معك يا يوسف ؟
قال لي: رصاصتان ، قلت : إذًا واحدة لي وواحدة لك ، وكم بقي معك من ماء؟أجابني : تكفينا لنحيا لبعد الغروب.
قلت له: إذًا يا أخي ستنتهي حكايتنا عما قريب.
كان حالنا يرثى له كنا هناك عالقين في حفرة، لمدة ثلاثة أيام، العطش والجوع والحر، وروائح الجثث المتعفنة المنتشرة في كل مكان نتيجة الاشتباكات الدموية الدائرة بيننا وبين المتمردين الإرهابيين،
صديقي يوسف من منطقة تدعى رأس البسيط مصيف ومنتجع ساحلي في سورية، يعد من أجمل شواطئ البحر المتوسط، يبعد عن مدينة اللاذقية 60كم .
المنطقة عبارة عن جرف ساحلي نصف دائري، تحيط به الجبال العالية، وتغطي المنطقة بالكامل الغابات من قمم الجبال حتى الشواطئ والغابات السورية.
سألني (يوسف):ما بك يا صديقي (ذهب)؟
قلت له: لا شيء فقط تذكرت أمي وأبي وأخوتي وكل الأقارب والأهل يمرون أمامي واحدًا تلو الآخر، تذكرت يوم زفافي كانوا يحملونني على الأكتف و صوت أمي، وخالاتي وعماتي وأخواتي، زغاريدهم تملأ المكان، قال

لـي (يوسـف): أنـت تهلـوس الآن تـذكرت يـوم زفافك، وضحك ببرود قاسٍ،
قلت له: نعم ..كل شيء مر بسرعة وكيف لا أذكر هذا اليوم ؟
اقتـادوني صـباح يـوم عرسـي لأخـدم العسـكرية ضـد الإرهابيين، والآن أقضي شهر العسل على تخوم أبواب الوطن... بربك يا صديقي يوسف أليس هذه أجمل أيام حيـاتي.... قضـيت نصـف عمـري فـي الدراسـة وسـهر الليالي لكي أكون من المتفوقين.
والآن أخدمه وأنا عاجز على أن أسير شبرًا واحدًا على هذه الأرض.
أيعقل أن نعشق هذه الأرض ولا نستطيع التحرك فوقها وهي من ترعرعنا فوقها، اللعنة على هذه الحال التي وصلنا لها،
اصمد يا صديقي سيأتون إلينا ...أنا متأكد،
حينها كانت الطائرة التي تراقب الإرهابيين تحلق فوقنا، قلت له: انظر يا صديقي من سيأتي وكيف سيأتي كل هؤلاء الأوغاد في كل مكان ؟ أشعر أنني في الجحيم لحاهم طويلة، لباسهم مقرف رغم الحر الشديد يلبسون العباءات وكأنها ستهرب أجسادهم منها، قلت ليوسف: نحن منسيون، ألا تشعر بذلك ؟ لقد أصبحنا من عداد المفقودين، كل تلك الأصوات حولنا ونحن هنا في هذه الحفرة من سيرانا ؟ احتفظ برصاصاتك لوقت الغروب.

قال لي(يوسف) : لا تتكلم هكذا سيأتون أجل، قلت لـه: أتـذكر كـم أصـرت(ميـرا) لنتـزوج ونهـرب بالقـارب لخارج البلاد كان أمامنا خطوة واحدة فقط بعد الزواج، وكان القدر ينتظرنا لنلبي لـه رغبـة واحدة ويحرمنـا من الأخرى.

أجابني (يوسف): حالي ليس بأحسن منك، لم أر مولودي الجديد منذ رزقت به، كل ليلـة أحلم بوجوده إلـى جـانبي وأنا أحتضنه وأداعبه ولم أر وجهه منذ ولد، ولا أعلم ما شكل لون عينيه، هل يشبهني أم يشبه أمه أم يشبه حمـاي صاحب الأنف الكبير المقور.

ضحكنا نحن الاثنان بصوت منخفض جدًا

يكمـل كلامـه يوسـف: وهـل أسـنانه نبتـت؟ فلـم أحتفـل بوجوده بيننا ولو ليلة واحدة، قلت له: نعم لمَ نحـن هنـا ؟ لِمَ وصلنا لهذه المرحلـة؟ كيف ؟ ولمـاذا؟ ومـن أجل مـن هذه الحرب تدار ومن يديرها ؟

قال لي : اصمت لحظة هس، أسمع صوت أقدام حولنـا ، قلت له: يا إلهي قضـي علينا، ماذا يتكلمون ؟ لغاتهم غير مفهومة.

انصت قليلًا: أيعقل أنهم من رفاقنـا جـاءوا للبحث عنـا ؟ ضحك (يوسف) وقال: كم أنت أبله يا صديقي، وهل أحد يتذكرنا الآن ؟ نحن في عداد الموتى و المفقودين، قلت له : لا أتصور ذلك، لقد ابتعدوا، أجل هكذا أفضـل، قلت له: لمَ لا نعطي إشارة للطائرة التي تحوم فوقنا.

أجابني يوسف: أجننت أي حركة سيرمون علينا صواريخهم ....هذه أرض الأعداء.
أرد عليه بسخرية: يا لسخرية القدر، الآن أصبحت أرض الأعداء، لم نعرف أي أرض هي لنا، ولدنا هنا ودرسنا حدودها وروينا نبتها و نعيش فوقها والآن أصبحت أرض الأعداء ، أليست مفارقة غريبة ؟
ذكرني (يوسف) بيوم لن ننساه، قال لي: أتذكر عندما كنا في الجامعة بالسنة الأولى جئنا إلى هذه المنطقة في جروب سياحي، أتذكر تلك الشقراء كانت كل الوقت تنظر إليك وأنت لا تبالي بها، ضحكت حينها من كل قلبي، قلت له: أجل كانت(ميرا) زوجتي الحالية بجواري كيف أنظر لها ؟ لكنت وقتها أصبحت من عداد الموتى.
أجابني (يوسف): صحيح... إنس يا صديقي لقد تقسمت الأرض والحياة، ألا تذكر أبا محمود صاحب محل تصليح الدراجات وتنظيف المدافئ أصبح أكبر محلل اقتصادي وسياسي وكأنه أخذ شهاداته من جامعة (هارفارد)، يتكلم بكل طلاقة ويحلل الأمور على حسب تفكيره هذا وألعن من كل ذلك؛ الكل يجتمع حوله ويتبادلون الحديث وتقوم الدنيا ولا تقعد على أساس الكل يحب هذه الأرض وقلبه عليها والشخص الآخر المقابل له خائن، ويبدأ العراك والسب والشتم والذم بالألفاظ، يا إلهي هؤلاء الجهلة الذين يتفلسفون، ورث الجاهلية من سلفهم (أبي جهل) بكل بساطة أصبح الجميع مثقفًا،

ووطنيًا أكثر من أي خبير سياسي وعسكري. ونسوا بالأصل أنهم جيران وأهل وأقارب نعم، رحم إلله تلك الأيام لم يبق منها شيء سوى الذكريات، قلت ليوسف: كم بقى لدينا لوقت الغروب ؟

حينها اعترف لي(يوسف) قال: عندما كنا في عزاء ابن خالتي، الذي مات بالتفجير جاءني اتصال غريب لم أكترث له عندما رأيت الرقم، قلت له: نعم أكمل، أجابني يوسف: كان هذا الاتصال من جامعة

(هارفارد) ضحكنا معًا. (الذي تخرج منها أبو محمود مصلح المدافئ). قال يوسف: أجل، ومازلت صاحب نهفة ونكتة، أنت رجل فظيع يا صديقي (ذهب). أقولها له: أجل أكمل، ممن كان هذا الاتصال ؟ لقد وافقوا على التعاقد معي ك (معيد) لأحد فروعهم. جاوبته على السريع:

لم تخبرني حينها.

رد عليّ بهدوئه المعهود: لم أجد الوقت المناسب، الكل حولي مصدوم بالعزاء وأختي(مريم) دخلت المشفى على إثر الصدمه بموت زوجها.

فأنت تعلم أنه ابن خالتي وأيضًا هو زوج أختي، وكل الأمور مرت بسرعة في تلك الأيام، قلت له: أنا لا أسألك عن الموافقة. أنا أسألك لمَ لم تخبرني أنك تراسلت معهم ؟

ألم نتعاهد أن نبقى معًا..ونتقدم للسفر معًا؟ .

قال يوسف: عندما قدمت الطلب كنت متشاجرًا مع زوجتي وأهلها، أنت تعلم أنها تركت البيت، وذهبت للعيش مع عائلتها، ورفضت البقاء بالمنزل مع أمي، وزوجة أخي، وأختي، وسهري.
يكمل يوسف كلامه: أجل معها حق، الكل هرب من تحت القصف ولا مكان للجوء له، الإيجارات مرتفعة جدًا، فجأة أصبح سعر الغرفة الواحدة عن راتب موظف.
إلى أين يذهبون إلى أماكن الإيواء؟ الحياة هناك بأماكن الإيواء أشبه بالجحيم، لا حل لنا حينها أنا و هي سوى منزل العائلة، و زوجتي رفضت البقاء مع عائلتي.
قال يوسف: أنا لا ألومها كانت ما تزال عروسًا أول أيام زفافها وبداية حملها،وتعلم أن بيت أهلي صغير لا يتسع لكل هؤلاء الأشخاص وصوت الأطفال أولاد أختي وعراكهم ليل نهار، هم أولاد أيضًا يريدون أن يلعبوا، فالمدارس معطلة لا يذهبون للمدرسة بسبب القصف.
الكل عاطل عن العمل والمدرسة التي كانوا يدرسون بها جاءها صاروخ أصبحت بين الأنقاض، حتى المدارس، أولاد السفلة لم ترحم من شرهم،قلت ليوسف حينها: نعم أنا أفهم كل ذلك وكنت متابعًا معك ولكن لمَ أخفيت عني كل هذه المدة أنك قدمت طلب الالتحاق بالوظيفة، ونحن هنا منذ ثلاثة أيام والآن أخبرتني ؟

أجل يا صديقي يوسف، الحرب قد غيرتك أنت أيضًا ...
قال لي: ها يا صديقي لا تظن بي السوء كأن الشمس بدأت تميل للغروب.
اسمع يا (يوسف): لا أريد الشجار معك الآن...لقد مضى وقت على ذلك وأصبح الأمر من الماضي المستحيل، وكيف لا ؟ وها نحن هنا عالقان في خندق و حفرة حفرناها معًا، ضد هؤلاء الوحوش وكأننا كنا نحفر قبرًا لنا نموت فيه معًا.
قلت له: نعم معك حق..ما يزعج خاطري أنك أخفيت الأمر عني، لو لم تجمعنا المصيبة في خندق واحد، كنت الآن أنت تدرس في جامعات الغرب وأنا لا علم لي.
عاد يوسف بالحديث و هو يقول لي: لا يا صديقي لا تضخم الأمر كثيرًا، أنت حساس جدًا كالعادة، كل شيء مقدر علينا...بماذا تفكر الآن ؟ ها نحن معًا، اضحك سنموت ولن نذهب لأي مكان.
قلت له : حسناً...صحيح
ـــما بال هذا الصمت لقد ذهبت الطائرة وهؤلاء الوحوش قد اختفوا.
لمَ لا نخرج ونحاول السير لأقرب نقطة من رفاقنا الجنود ؟ قال يوسف : كيف سنعلم اتجاههم؟ أخاف أن نختار الاتجاه الخطأ، ونقع بأيدي هؤلاء الوحوش سيعذبوننا حتى الموت ثم ينحرون رقابنا كأننا نعاج حللت للذبح، أنسيت يا ذهب أننا في الصحراء ؟ نموت هنا أرحم من عذابهم.

قلت له : إذًا لا خيار أمامنا سوى وقت الغروب، حافظ على الرصاصتين اللتين معك.... يعاود (يوسف) الحديث:
عندما اتصلت بصديقنا الدكتور (سعيد) ردت عليّ أمه ، وكانت بارتباك شديد في صوتها حشرجة قوية سألتها عنه قالت: ذهب للقرية لبيت جده لأن جده مريض، لقد كذبت عليّ المسكينة، أنا أعلم ذلك جيدًا ، لقد علمت بعد فترة من الدكتور (ثائر) أنه اختفى منذ مدة طويلة، في بادئ الأمر كان الجميع يظن أنه اختطف أو قتل، ولكن المسكين بحثوا عنه كثيرًا وأخيرًا اتصل بهم وأخبرهم أنه في مكان آمن مع (جند الله) هكذا قال، لقد التحق بالجماعات المسلحة، لما باع نفسه لهم رغم أن وضعه المادي ممتاز ووظيفته رائعة وله زوجة وأولاد.
تساءلت كثيرًا :رجل بمكانته الاجتماعية ووضعه المادي، ما هو الشيء الخفي الذي ينقصه ليلتحق بهؤلاء المجانين ؟ عندما علمت الخبر من الدكتور (ثائر). بقيت مذهولًا لعدة أيام، ظل السؤال يأكل عقلي إلى أن ذهبت لزيارة والديه لأطمئن عليهم، أنت تعلم يا (ذهب)أننا كنا معهم على علاقة قوية معه ومع عائلته، هو رجل طيب وكريم، يا إلهي كدت أجن حينها، اختفى فجأة، وترك عائلته، في مأزق كبير، ووضعهم تحت الشبهات والتساؤلات واللغط والكلام المزعج، كنت أتمنى أن يجيبني حينها أحد لِمَ فعل ذلك ؟ وأمه و والده لا صوت لهما سوى، الله يهديه. كان دائمًا يتحدث عن تغير الواقع

والمجتمع وتغير الأفكار و المعتقدات، كان حلمه، يفوق الواقع، وهل يستطيع أن يغير شيئًا،
الكل كان مخدوعًا ببعض القيم والمفاهيم،
الأمر أكبر من ذلك بكثير، إنها لعبة كبيرة، لعبة سياسات ودول عظيمة، يريدوننا سوقًا لمنتجاتهم، وألعابهم المتفجرة، نحن شعب بسيط مرّ عبر العصور بمآسٍ ومجاعات وفقر شديد، وكلما ننهض لنسير، نتدحرح من جديد ونقع، رغم كل ذلك اكتشفت أننا شعب نطمع في ثروات بعضنا البعض ومتخلف يركض وراء فُتات من الأشياء الصغيرة والتافهة، مقابل أن يبيع أخاه الإنسان ببخس الثمن، نحن البشر كدود الأرض نأكل الأخضر واليابس وعندما لا نجد ما نأكله، نأكل أنفسنا.
أجل هذا ما يحدث معنا في واقعنا الذي عشناه وقت الحرب أنها لمفارقة صعبة، أننا في الزمن المضحك المبكي يا صديقي يوسف؟
ويظل السؤال في رأسي يدور، لمَ فعل الدكتور (سعيد) ذلك؟ هل يستطيع أن يغير شيئًا، لقد تدهورت أحوالهم العائلية والمالية بشكل فظيع، تسبب ذلك بما فعله، بأن زوجته ذهبت لبيت أهلها، وأبوه مرض بداء السكري وأمه يرثى لحالها،
قال يوسف: كل شيء تغير، لم نعد نعرف بعضنا البعض، كأننا كنا ننتظر هذه الأيام لننقلب ضد بعضنا البعض، الحب انعدم بين الناس والكل يتقاوى على الآخر، يظنون إذا كسبوا بعض المال بالنصب

والاحتيال أو مرت بعض سرقاتهم هم أذكى منك، لا يعلمون أنهم خسروا أعز وأقرب الناس لديهم، قال ذهب: ما بالك يا (يوسف) ؟ هذه أول مرة أسمعك تتحدث هكذا، كنت دائمًا صامتًا تقول لا علاقة لي بشيء، أنا أريد أن أعيش مبسوطًا، الحياة قصيرة أريد أن أستمتع بها، نعم تغير كل شيء عندما اقتادوني عن الحاجز ووضعوني في سيارة الشرطة وقالوا لي: أنت مطلوب للاحتياط في خدمة الوطن، نعم أنا أحب وطني وأحب أرضي، ولكن لا علاقة لي بحمل السلاح والقتال أنا مهندس درست واجتهدت، وأمنت بالكون الكبير لإصلاحه، ولكن ليس لأحمل سلاحًا وأقتل إنسانًا مثلي مثله، من أجل ماذا ؟أليس هذا الكون يسع الجميع؟ ألم نخلق من أرحام أمهاتنا نشبه بعضنا البعض في كثير من الصفات ؟ لِمَ الحدود بين الدول، لِمَ جوازات السفر ؟ لِمَ كل هذه الأسلحة؟ لنقتل بها بعضنا البعض، اكتشفت أن الناس كم هم متطرفون في أفكارهم ومعتقداتهم، كم هي خبيثة نواياهم السيئة، اكتشفت أننا قطعان ماشية ننساق كالثور الهائج عندما نشعر بالخطر دون تفكير ودون تخطيط أو علم مسبق. اكتشفت مدى قدرة الإنسان على تدمير هذه الأرض مقابل بقائه على قيد الحياة، أتعلم أبا (حاتم) ذلك الخبيث كان يجند الشباب في المخيمات المسلحة، ثم يكشف أمرهم لأجهزة الأمن يقبض ثمنهم مرتين، أليس هذا أسوأ أنواع البشر؟ يغرر بهم ثم يبيعهم مرتين. وتقول لي ما بالك يا صديقي

تغيرت؟ أجل تغيرت بسبب أخلاق وتصرفات أناس لم أظن يومًا أن أشك بأمر نواياهم وأخلاقهم، أشعر بالعطش الشديد، من كثر ما تكلمت، يبدو أن وقت الغروب سيطول، حتى (أبو حمزة) أصبحت أحواله المادية فوق الريح، من أين جاء بكل هذا المال ؟ ابنه البكر يقود سيارة جميلة جدًا وفخمة. ماركة (مرسيدس) الحديثة من أين حصل عليها، رغم غلاء الأسعار وكل هذا الفقر المنتشر بين الناس هبطت العملة لمستوى سيء.

والناس متشردة في الطرقات تشحد رغيف الخبز والأطفال جياع، كان هو وزوجته قبل الحرب، يعيشون مثل المتسولين، وأصواتهم وخناقاتهم تملأ الحي، وزوجته في شكوى دائمة من فقر حالهم وأن راتبهم لا يكفيهم، كيف جاء هذا المال والعز والجاه؟ يمشي بالحي ابنه البكر حمزة وعلى خاصرته سلاح ظاهر للعيان.

تقول: أنه مسؤول كبير وهو لا يعلم كيف يكتب اسمه، نعم رأيته مرة في بقالية (غيث)كان يضحك ويتبجح ويناقش بصوت عالٍ كأن هذا المال حلال، كله مال مسروق نحن نقاتل الخونة وهم يأتون ويسرقون ما يخلفوه خلفهم ويدعون أنها (غنائم حرب). الأبرياء تموت من شدة الجهل والتخلف والاعتقادات الخاطئة في مفهومهم للدين والحياة، وناس تحيا من شدة النصب والاحتيال، وتملأ جيوبها من أشياء مشبوهة، يا رجل لقد عملوا في كل شيء اغتصبوا النساء وحجزوا الرجال

وعـذبوهم تعـذيبًا لا يـرحم حتـى المـوت، ويتبجحـون بالشرف والكرامات، لم أستطع أن أفهم ما هو مفهوم الكرامة أو الشرف عند هؤلاء البشر، هل هذا المعنى يتفق مع مصالحهم أم يقف حجرة عثرة أمامهم عندما يريدون في هذه الأيام، كل شيء اختلط معي، لم أعد أفهم شيئًا، كل الأمور أمام عيني غير واضحة ولا مفهومة، أخبرتني (منى) زوجتي وهي مرعوبة، وتبكي : بأن بيت جدها القديم القريب من البساتين، حولوه لمركز اعتقال لأعمالهم المشبوهة، كانوا يأخذون النساء إليه بحجة أنهم يحققون معهن ويجبروهن على الاعتراف بأن أزواجهن إرهابيون ، أكيد بعد الضرب والاغتصاب ونهب ممتلكاتهم، قالت لي : لقد شاهدت فتاة في العشرين من العمر، يجرونها وهي تصرخ وتترجاهم أن يتركوها وقد تبولت على ثيابها من شدة الخوف،هؤلاء مجرمون وجبناء، لا أعلم كيف كنا نعيش بينهم وهم بهذه الأخلاق السيئة، بل كلمة سيئة قليلة عليهم ، إنهم أوسخ من القذارة ولا صفات للبشر بهم، هناك قصص كثيرة ومرعبة يقشعر جسدك منها لو تكلمنا عنها نحتاج لمئات من الورق والحبر ولا تنتهي، أتعلم : نحن دائمًا نعيش وهم البطولات والانتصارات في الحقيقة نحن الخاسر الوحيد في استنزاف الروح والأمل، نحن معاقبون لأننا بشر، أسمع يا (ذهب) نعم أسمعك، ماذا تريد أن تقول ؟ كم من الحظ أحتاج لأكون بمستوى الإنسان ؟ لِمَ تقول ذلك ؟ نحن نحتاج للكثير

لنتغير، كل شيء حولنا قد تغير، يجب تغير سلوكنا وبرامجنا اليومية ومفاهيمنا الخاطئة حتى الأماكن أصبحت مملة وقديمة تحتاج للحداثة.
ونحن يا صديقي ..... في العالم الثالث في الخيار الثاني.
قلت له: أسمعت يا (يوسف) آخر التعديلات الحديثة ؟
يرد عليّ : كل المقترحات يا رجل في واقعنا تدور فقط، حول الرجل والمرأة، كأن كل عُقد الحياة والكون تكمن في هذه الدائرة الضيقة. القضاء على العنوسة وكأن مشاكل البشر كلها بالزواج، سمعته آخر خبر قبل أن نعلق في هذا الجحيم، زواج الرجل لأربع و أكثر من خمس نساء بحجة فقدان الكثير من الرجال في الحرب... لم يعد هناك رجال.
انقرضوا ، سيضمون كل عشر نساء لرجل واحد، كأنه راعي قطيع من الأغنام، ما هذه الحجج الواهية ؟ وهل تحل المشكلة بخراب بيت الزوجة الأولى؟ وهل إذا تزوج الرجل باثنتين وثلاث وأربع تحل المشكلة وهل يستطيع العدل بينهما نفسيًا وجسديًا واجتماعيًا وماليًا، الرجل الذي لديه أكثر من ولد لا يستطيع أن يعدل بينهم كيف يستطيع أن يعدل بين أكثر من زوجة ؟ لديها متطلباتهم الكثيرة والكثيرة من الناحية النفسية والمادية والمعنوية والجنسية.. ومن ناحية أخرى هذا كلام غير دقيق مقابل كل امرأة هناك رجل لأن الكون حسب الإحصائيات العالمية متوازن بين الذكور والإناث، والمرأة التي تسعى لتتقاسم زوج امرأة أخرى ، امرأة

غبية لا تفهم من الحياة سوى القليل ستبني سعادتها على حساب غيرها، وهل الزواج سيحل عقد ومشكلات مجتمعنا؟ الذي يعاني من الفقر والتسول والدمار والجوع! والمرأة الذي تتزوج لأول مرة هل لا تريد أو لا ترغب بعدم الإنجاب؟

والرجل المتزوج الذي عنده عشرة أطفال من زوجات أخرى أين يذهب بهم وكيف يرعاهم؟ أنا متأكد أنه لن يحفظ حتى أسماءهم! وسيصيبه الزهايمر من شدة المشاكل وأعباء تحمله للمسؤولية! وهل هذا الطفل الذي سيأتي إلى هذه الدنيا ويجد أمامه أربع نساء زوجات أبيه وأولاد أبيه سيكون له مكان بينهم؟ إنهم ينظرون فقط للمتعة الشخصية والجنسية أما المشكلات الاجتماعية فهي خارج نطاق اهتماماتهم، لقد كثرت الخيانات الزوجية في الآونه الأخيرة؟ الكل يكذب على الآخر، الزوج يكذب على زوجته وهي تكذب عليه، والكل خائن في النهاية.

لِمَ ينظرون للخيانة بأنها كفر بالحياة الزوجية المقدسة؟. وإذا غيرنا مفهوم الخيانة إلى أنها التقاء الروح بروح أخرى وتبادل أحاسيس ومشاعر وجدها في شخص معين غير موجودة في الشخص الذي ابتلى به على طول العمر ، على أنه زواج مقدس أو عهود دينية وشرعية أو وفاء ذلك جرم في الكثير من الأحيان نكون مخدوعين بأشخاص نلتقي معهم ويربطنا بهم عقد زواج، وأولاد، وبعد مرور الوقت نكتشف أن هذا

الشخص الذي بنيت وقضيت معه أجمل سنين عمرك لا يستحق كل هذه التضحيات التي تبدلها لأجله، ألا يحق لك في تغييره. أو...أن تلتقي بشخص تشعر معه بالحب والراحة والطمأنينة على أن تبقى مع شخص لا يولي لك شيئًا من اهتماماته، في المقابل يحق للطرف الآخر حرية اختيار من يتناسب مع واقعه الجديد، وهي وجهة نظر لكثير من البشر، وهكذا يبررون علاقتهم ويطلقون عليه اسم خيانة، أحيانًا تكون أقدارنا مكتوبة على أسماء أشخاص لا يمتون لنا بصلة، وتدور الحياة لنلتقي بأناس هم كل شيء لنا.

يبدو أن واقعنا لن يتغير ومفاهيمنا لقيمنا ستبقى هي لا تغيير يطرأ عليها، بما أن هناك دائمًا مبررات وحججًا واهمة أنت في مجتمع نصف شبابه وشاباته في ضياع، يا رجل يضعون قانونًا ويلحقون به ألف فتوة وفتوة وكأنهم يلفون حول المشكلة لا لحلها بل للتستر عليها.

لم نستطع أن نحل شيئًا بهذه الطريقة بما أن الفقر والجوع والبطالة تنهش عظامنا، سنبقى سوق استهلاك، أجل نتكلم أنا وأنت وعلى أساس نستطيع حل كل تلك المشكلات حتى مشكلاتنا الزوجية لم نستطع حلها ونحن عالقان مثل القطط في حفرة سنموت فيها بعد قليل، إنني جائع جدًا..اصبر لما يبق الكثير لوقت الغروب. فجأة وبكل عزم وقوة،اشتد صوت الرصاص والقذائف والتفجيرات،من كل مكان جاء الجيش بكل عتاده، وبغطاء من الطيران في الجو، وبهجوم كاسح شل حركة

المتمردين الإرهابيين، صوت الأنين والصراخ والدماء في كل ناح، ثم هدأت المعركة بعد ساعة من الدمار المميت، قلت في نفسي: لم يبقَ سوى قنبلة تفجير ونصبح في عداد الموتى، رفعت رأسي للأعلى ظهر أمامنا جندي يقول من أنتم ؟ ارموا أسلحتكم.
بسرعة قلت له أنا الملازم أول (ذهب) من الكتيبة الأولى، وهذا زميلي الملازم أول (يوسف) من الكتيبة الخامسة الفوج الأول.
بدأ ينده بصوت عالٍ ...سيدي ...سيدي
يوجد هنا جنود. هل أنتم أسرى...قلنا له لا نحن علقنا هنا منذ ثلاثة أيام، عند الانسحاب التكتيكي لمجموعتنا، قال لهم النقيب المتواجد حينها: أخرجوهم من الحفرة وضموهم مع باقي الجنود، ابحثوا في كل مكان قد يكون هناك أسرى في أي مكان، بعد تمشيط كامل للمنطقة، واستسلام عدد كبير منهم، عدنا إلى الكتيبة وبعد فترة ليست بالطويلة صدر قرار عفو وتسريح للفوج الذي كنا فيه أنا وصديقي (يوسف)، وعدنا إلى حياتنا اليومية الطبيعية، ثم قررت أن أهاجر إلى مكان لا يذكرني بكل ما مر معي، رفضت زوجتي أن تهاجر معي، وأن تترك والدتها ووالدها المريض بعد تهجيرهم من بيوتهم، مات أخوها الأكبر وزوجته وأولاده بقذيفة هاون على منزلهما، والآن أنا هنا أعيش على أنقاض الماضي، أتذكر كل ما مر معي، إنه كابوس، أراه كلما أنام، لذا قررت أن أكتب رسائل وأرميها في البحر عسى هذا

البحر أن يتحمل ولو القليل من الهم الذي يسكن داخلي هكذا نصحتني الطبيبة النفسية المعالجة لحالتي، هذا ما حدث معي، أتمنى أن أكون قد أوضحت لك الصورة، ولو بجانب قليل عن حياتي الماضية، ابتسمت له، وطلبت فنجان قهوة آخر لأستطيع أن أجمع نفسي وأفكاري من جديد، وكل واحد منا يعود لوضعه الطبيعي، دون أن ندخل في تفاصيل حياة الآخرين، وأتابع روتين حياتي اليومي. تعلمت أخيرًا أن لا أحلل الأمور كثيرًا، أو أضع مبررات لتصرفات الغير أو لتصرفاتي. وتخفيف بعض الظن والحشرية والفضول في داخلي الذي أحيانًا يضعني أمام مشكلات وهموم الناس.

فقط آخذ القرارات في الوقت المناسب دون تردد أو خذلان، فاكتشفت أن الحياة فيها جمالها الخاص بها، فأجمل ما في الحياة أن تصل إلى الأربعين من العمر وأنت في حالة نشوة وفي الخمسين في حالة معرفة، وفي الستين كأنك تشعر بالاثنين معًا وتتلذذ بهم والسبعين مازلت تتعرف إلى نفسك من جديد وإذا وصلت للثمانين ستثني عليهم، بأنك مازلت أنت، فتعرف الكثير من الأشياء وتستمتع بها، في كل لحظة. هكذا ستكون حياتي وأنا أخطط للقادم الأفضل.

استأذن السيد ذهب مني وعاد إلى بيته، لكنه نسي على الطاولة قصة، كان يحملها في يده، ضحكت من جديد، قلت إذًا سأجتمع معه مرة أخرى لأعيد له الكتاب،

مكتوب على الغلاف اسم : (راقصةالإمبراطور) شد انتباهي العنوان، أخذته معي إلى المنزل، صنعت كوبًا من الشاي الساخن وجلست في الشرفة وبدأت في قراءتها، قصة حدثت في الزمن البعيد، شد انتباهي العنوان وبداية القصة.

مكتوب في بدايتها: تبًا لك وسحقًا، بدأ الحلم يختفي وكل ما تدركه يصبح وهمًا، كل ما يتعلق بمطالب أو حقوق يصبح ضربًا من الخيال، حصاد دهر لم يكتف ذلك النمرود المتكالب على تلك البجعة المسكينة أن تسلم منه، أذلها، سحق كرامتها إلى الحضيض جعلها مثلما يريد، مسكينة صامتة لا تنبسُ بحرف، يسقط منها الكثير من العبارات والقلق يخيم عليها الخوف والرعب تخاف بطشه، تحلم بأشياء جميلة تزين جادتها، يزهر ربيعها يعوضها عما فاتها من أوجاع وآلام المخاض العسير، الذي ألمّ بجراحها وقت استنزاف المصائب.

حاولت جاهدة هذه (المعمورة) النهوض والسير في استقامة واحدة إلا أن شيئًا ما يشدها نحو الأسفل، تلك الحقول التي أصابها العطش لم ترتو يومًا،جفت تشققت أكلها الوباء حلمت أن ينبت برعم صغير يداعب عقول الجهلة، ولكن هي موقدٌ للثأر في خاصرة الأيام والأزمان والأزمات، حاصروهم على مدار سنين، بزغ ذلك البرعم بدأ يكبر تمددت أحلامه حاول جاهدًا أن يكون لها إخوة بين الشقوق ليقوى عوده... عندما كبر قليلًا، جاء عابر سبيل داس عليه سحقه بقدمه المبتورة

بالتخلف والجهل ....أصبح يتعذب بين الشقوق، أن يكبر ويساعد من حوله أو أن يستسلم ويخلص نفسه من بطش ذلك المبتور بالجهل إلا أنه علم أن لا فائدة من رجل قوامه العبودية....والتخلف...والجهل. ما أن تحررت هذه الأرض ...من ظلم المستعمر بعدما قطع أجزاءها دويلات صغيرة، وبث الرعب والحقد بين رعاياها حتى جاءها ذاك الأحدب بسط سيطرته عليها بهامته الثقيلة ذهب المحتل ووضع ذاك الأشعث بدلًا عنه حرمها من حريتها. هي محاصرة بجيش عرمرم من الفاسدين والحاقدين على ترابها الطاهر. الآن لا تستطيع مقاومته سوى بالصراخ والبكاء بصمت حزين، كيف تجرؤ على العودة إلى سالف عهدها؟ هذه الأرض فتية ما لبثت أن خرجت من تحت الانتداب والاستعمار حتى صفعها بكفه الثقيل أرداها أرضًا، بسط سيطرته عليها بسطوة حراسه، بقمعهم المستمر لها ولكن هي بحسن مفاتنها الرائعة كسبت قلبه، بدأ العشق يتسلل لداخله، بنظراتها البريئة وعفة روحها وتواضع أخلاقها ماذا تفعل ببطش إمبراطور، لديه كل القوة والحرس وكل ما يخطر ببال أحد ، إنهُ رمز العبودية والوحشية همهُ الوحيد ثروته وقوة نفوذه، يا إلهي الآن يجتاح كينونتها يغريها بما لديه من قوة ونفوذ ماذا تفعل؟ ادخر كل أموال مملكته لشراء آلات التعذيب والقتل ومعدات عسكرية أهلك الشعب بالخطابات والوعود الكاذبة نصب المقاصل علق المشانق أعدم العقول التي تعارض مصالحه الشخصية،

سحقهم بأفكاره المتخلفة لا يريد أن يتطور شعبه يريد الفقر والجهل يعم المعمورة وهو فقط يستلذ بما شاء وطاب، حتى أبناءه لا يعترف بهم منذ الولادة يرسلهم لمربيات يرضعنهم، حرمهم من حنان الأم، لم يكبروا معه لِمَ هذه القطيعة يعتبرهم أبناء زنا، الصمت يخيم، بدأ زمن الاعتقالات، لقد حول البيوت مساكن للحرس، حفر خنادق تحت الأرض الكثير من الأنفاق ،حول المعمورة خوفًا من أن تتسرب الأفكار من الخارج إلى مملكته.

كل هؤلاء البشر هم سجناء مساكين من أين جاء بهم؟ هم فلاحون وعمال كل من يقترب من مملكته يزجه في السجن.

يصيح أحد المعتقلين: أنا لم أفعل شيئًا لمَ ترموني في السجن؟ ماذا فعلت؟ يبدأ بالصراخ والبكاء ويرجوهم أن يفكوا قيده ويطلقوا سراحه، يأتيه صوت من خلف الجدار، اصمت يا هذا، تبًا لك يبدأ الشتائم بصوت مرتفع : أريد أن أنام، لِمَ كل هذا الصراخ والزعيق؟ اصمت ولا أريد أي كلمة منكم نحن هنا إقامتنا طويلة الأمد!! ماذا ينقصنا طعام أو شراب، أو غذاء، أو دواء أو حتى وسائل ترفيه ؟ كل شيء متوفر هنا.

هنا نزل الأثرياء، انظر الحمامات مغاسلها من فضة وذهب أما الأسرة إنها من الحرير، ولكن أنتم شعب جاحد النعيم، اصمت، أريد أن أستمتع بإقامتي السياحية هنا، يا ويلي ما هذا الخرف من حولي ؟

كانت زنازين تحت الأرض كل زنزانة لا تتسع لمد رجل واحدة والماء يتسرب من بين الشقوق.
ابتعد أيها الفأر هذا طعامي، لا تقترب ارحل بعيدًا هيا، يا إلهي ما أكثرهم من أين كل هؤلاء البشر، من أتى بهم إلى هنا؟ ماذا فعلوا...؟لحاهم طويلة وشعرهم أشعث أجل حتى أظافرهم وسخة جدًا وطويلة، العفن والوسخ والأمراض هنا في هذا المكان، بدأ جسدي يحكني ...أهرش بحالي...لِمَ لا يأتي أحد من منظمة الصحة وترعاهم ...؟! كم أنا أحمق كيف يأتون إلى هنا...؟وهل يسمحون لهم؟ كل شخص يريد أن يسلم برأسه، كي لا يأتوا بأحد من أفراد عائلته معه، يا إلهي بدأت الأفكار تنهش عظامي، هل من الممكن أن يقودوا ولدي الوحيد ويعاقبوه أمامي....؟!!
أم يحضروا زوجتي ويغتصبوها وأنا أراهم،
أو يقتلعوا حنجرتي أمام عين أمي وأبي وأبقى أتألم أمامهم...؟!! لا.. ليس لهذه الدرجة أنا سمعت عن بطشهم ووحشيتهم!ولكن ليس لهذه الدرجة الرديئة، والوقاحة، هذا هو الإجرام بحد ذاته.
سأحتفظ ببعض الصمت ولا أثرثر كثيرًا أو أن يعروا جسدي ويتركوني أنام فوق الثلج،
لا.... هذا غير معقول هم يحتاجونني ويحتاجون هؤلاء المساجين لأعمال السخرية، ماهذه الأفكار التي تراودني...!! يبدو أنني جعت كثيرًا ، أجل أنا جائع. آه يا (سمية) يا حبيبتي!.اشتقت لك و لطعامك المحروق

،كم كانت ساذجة وغبية!!... تحاول أن تخترع أصنافًا جديدة من الطعام وتبتكر ، أما أن يحترق الطعام .. أو تزيد الماء فوقه فيصبح خليطًا لا تعرف له طعمًا أو رائحة، أو الملح يطوف حوله...

على كل حال ليتني أعود إليها أتناول طعامي من بين يديها، كل شيء أرحم من هذا الطعام العفن. .. حسنًا كل شيء الآن لا يهم، الأمر المهم عندي الآن كيف سأخرج وأتحرر من هذه الورطة التي ألمت بي، أذكر ذات يوم قلت لها : سيزورني صديقي وزوجته، هل تستطيعين أن تقومي بصنع كل شيء وحدك ؟

قالت وبكل إصرار.. أجل سترى أصنافًا جديدة من الطعام وستشكرني أمام ضيوفك، شعرت حينها أن هناك مصيبة ستدب فوق رأسي،لذا ذهبت عند أمي وقلت لها: أرجوك يا أمي حضري لي وليمة تليق بصديقي وزوجته ولكن أرجوك مرة أخرى لا تخبري سمية أنك تحضرين هذا الطعام من أجلهم، أنت تعلمين أنها بسيطة وجميلة وأنا أحبها ولكن هي لا تتقن صنع الطعام الجيد اللذيذ مثلما تصنعينه بأناملك الطيبة، وهكذا مر يومي بسلام وأمان، حبيبتي يا سمية، يا إلهي ما هذا ...؟

الشيء الذي لا يبكيك في لحظتها باهت ولكن يترك ألمًا ليتمرد عليك من جديد عند أي موقف ويصنع ثورة من اليأس والإحباط، كانت أمي في ليالي الشتاء الباردة الخالية من أي ملذات الحياة تصنع لنا عرائس بالسكر

والسمن، تقول إنها تقوي الذاكرة وتنعش القلب كل هذا لتخفف من قسوة الجوع الذي ينهش أمعاء صغارها.
كلما أرى الطوب والرمل، أتذكر يد والدي اليابسة المتشققة من العمل والتعب والجري وراء عربة البحص والرمل والصعود بها على ظهره، لتأمين قوت يوم لا تكفي لإطعام أفواه صغار يتنفسون الأمل والحب من التمرد والصبر لأبوين عشقا الحياة، هناك صوت أنين يأتي من خلف زنزانة أخرى، اسمع يا أخي! لِمَ أنت هنا؟ لِمَ الأنين؟ صوته حزين، ماذا أصابك؟ يأتيه الجواب: كل يوم يأتي الحرس يجلدونه ويعيدونه إلى هنا.
ما تهمتك يا أخي، يقول آخر: أنا سمعت أنه وعلى ما أعتقد ولست أجزم هكذا سمعت أنه كان من ضمن حراس الإمبراطور، كان يسترق النظر خلسة خلف الأبواب ويوشي به لأعدائه، آه الآن فهمت، يعني جاسوس.
يقول آخر ليس هكذا هو لم يفعل ذلك كان يسرق من خزينة مال الشعب عندما يجمع المال من المحاصيل عند الفلاحين،
اصمت أنت وهو ..لا... ليس الأمر كما تقولون: لقد عقد صفقات كثيرة مع أعوانه بالخارج وكان يراسلهم وينقل لهم أخبار كل ما يحدث بالمعمورة، إنه عميل...هكذا إذن.

يقول آخر: ليس كل ما تحدثتم عنه صحيح هو لم يفعل شيئًا مما ورد... ولكن ماذا فعل؟ لِمَ كل هذا الأنين؟ يا إلهي ارحم هذا المسكين، يصيح أحدهم من زنزانة أخرى: مسكين هذا مسكين، يقولها بسخرية، إنه خبيث، كان عين الإمبراطور التي لا تنام يتجسس على كل ما يحيط به وينقل لهم أخبار من حوله في مقاطعته حتى أنه جاسوس على زوجته وأبنائه. امممم ...يتمتم الرجل وماذا كان يجني من كل هذا ؟ نحن ما نزال بعيدين كل البعد عن التطور والتقدم والحضارة والتخلف والجهل ينهش بنا..

_أجل مثل هؤلاء البشر يكونون أذناب الإمبراطور لقاء فتات من الطعام العفن، ليس صحيحًا، كان عاشقًا لراقصة الإمبراطور، أراد أن يحررها ويطلق سراحها نحو الحرية ويقضي على حكم الفرد الواحد، ويقودها نحو مستقبل فيه تطور وحضارة لا استعباد ولا سيطرة أو خوف من القادم، بناء مدارس للتعليم وجامعات وروضات للأطفال كان يحلم أن تزهر مع تطور الإنسان حتى يكبر العقل البشري وينافس بها تطور الأمم، تلك الفتاة الجميلة الفتية جعل منها الإمبراطور راقصة له، هي شهيدة النقاب وعطوره قبيحة الرائحة، ليتحسس جسدها كل ليلة ويستمتع بشهواته، عقد صفقات على جسدها الضعيف المهمش من شدة الخوف والطعن بعفويتها.

أمر حراس القصر بمراقبتها طوال الوقت ليل.. نهار. حتى ..لا يتسنى لها مخاطبة غيره ويغيرون مشاعرها اتجاهه، ذلك الإمبراطور، قبيح الخلق أحدب الظهر أشعث الرأس كبير الكرش، تنتابه لحظات خوف وجنون يرتعش عندما يراها، يقف صامتًا أمام جمالها، الآن هي تقف أمامه عند عتبة جناحه يختلس النظر إليها،هل ستقترب نحوه أم ستتردد في الدخول إلى مكان قبحه، بعد كل هذا الانحطاط الفكري والسياسي والحضاري، بدأت تكبر وتشهد لها أيامًا جميلة تزهر مع ربيع جيل جديد قادم يدمر كل فكر ورثوه من أسلافهم. آباؤهم كانوا جبناء ملوا القتل والتدمير يريدون فقط العيش بسلام بعيدًا عن سفك الدماء والقتل، الجيل الجديد يرى الحياة من منظور آخر يحب الموسيقى والرقص والزهور، والتعليم في الفضاء الخارجي تحت أشجار اللوز والسنديان، هذا الجيل يعشق الحرية ويكره العبودية يريد مواكبة العصر وحمل أحدث الأجهزة بالأسواق الإلكترونية، يريد أن يتعلم في الطبيعة وليس في صفوف مغلقة يكبلها النعاس مع بدء الدرس، يا إلهي، ما هذا الخيال والأحلام؟ لِمَ تطور حلمنا إلى هذا الحد ؟يجب طرد كل هذه الأفكار السوداء من عقولنا وعقل راقصة القصر ... لا يجب التمادي في الأحلام، فجأة استيقظ على صراخ وتمتمة، الكل مرتبك وخائف هناك جلبة في الخارج وكلام غير مفهوم.

ماذا يحدث؟... لِمَ هذا التوتر والأصوات ؟لِمَ يأخذون السجناء ولا يعيدونهم ؟ ماذا يحدث؟كثرت الإعدامات، لماذا؟ يا إلهي سيأتي دوري، أقسم بالعلي العظيم لم أفعل شيئًا، كنت نائمًا في فراشي عندما جاءوا بي إلى هنا، سمعت أحد الحراس يهمس بصوت منخفض، إن راقصة الإمبراطور هربت من القصر وجميع من في المملكة يبحثون عنها، هناك استنفار عام بدأت حالة الطوارئ في البلاد. أين هي لِمَ هربت ؟ أين اختبأت؟
يقولون هربت إلى المزارع بين الغابات مع العمال والفلاحين ليحموها من بطشه، هي تخافه ولكن الآن تمتلك القوة الكبرى أصبحت شابة قوية تدرك ما تريد، ولكن الآن....الآن بدأ نتف الريش ظهرت عورة الإمبراطور أمام الملأ، ركض كل صاحٍ وباع يسترق النظر إليها، ليتساقطوا فوقها مثل الذباب.
ستنهض ويقوى عودها ولم تثمر إلا بعد أن يعترف بها أمام الجموع أنها ليست لقمة سائغة له ولكل من طلب التودد لها. يتقاسمونها كقطعة أرض .. كانت نيتهُ حمقاء عندما خرج بها للعلن لم يدرك أنها فتية ليس لها جدران تحميها من الرصاص وأنها مرة المذاق ولقمة سهلة بين أسنان الأشرار، صاح أحدهم، ولِمَ هي هنا؟!! كيف استطاعت الهرب ؟ من أطلق لها الحرية للخروج؟.كيف تحررت تلك الجميلة؟ من فتح لها الحدود؟.
أسئلة كثيرة تذوي في المكان دون أجوبة، تدور الأحاديث الكثيرة!

دائمًا يطلقون عبارات استغراب عن الحرية والسلام وحقوق الإنسان وإطلاق سراح المعتقلين والتحول الاقتصادي
وصوت هرج ومرج تضيع الحكاية والكل يبدأ بقصة جديدة كأنهم يعلمون ما يحدث تختفي الأحاديث وسط صمت لتبدأ من جديد سرد قصة أخرى
وكأنهم يريدون كل واحد فيهم تصديق قصته أكثر من الآخر، ومازال الكل يحاول أن يسترق النظر إليها خلسة بتمعن في مفاتنها الجميلة، ذات القوام الرفيع، والشعر الحرير الأشقر، ذات ابتسامة رقراقة عذبة وعيناها تبرق بكل ألوان الربيع.
حتى عندما تسير تسرق الأبصار الكل يهيم خلفها بمفاتنها، يقول آخر: لِمَ وضعوها هنا ؟ من أتى بها إلى هذا الحي الشعبي الفقير ؟ يريدون إثارة الفتنة بين أبناء الوطن الواحد هي رمز للحرية !.... ماذا يقصدون بجلبها لنا؟ ما هي الغاية من كل ذلك؟
أجل يتمتم أخوه من خلفه لِمَ لا نأخذها لبيتنا وهناك نستلذ بالشراب والطعام معها...؟ يعقد أخوه الأكبر حاجبيه به: اذهب من هنا لزوجتك، لتنظيف نفسك رائحتك نتنة، أين هي تختفي فجأة؟ من رآها هل هي جنية؟ لِمَ اختفت ؟
يصيح آخر لا يا أخي عندما كنت تتحدث إلى أخيك وتتعارك معه جاء حراس القصر وأخذوها معهم.
انتهت أول قصة من الرواية التي كنت أقرأها هل أتصل به أم أكمل قراءة باقي الرواية ؟

لا سأكمل .. بقي جزء صغير منها وهي تحكي حكاية الطباخ وكيف تم إعدامه وترك الحمار يستنجد ويسخر من كل ما حدث

تقول الرواية:

حاول وتحاول وتحاور، ولن تجد غير المحاور يحاول قتل هذا الصمت نفسه عندما طلب جزية وفدية لصمته، سألهُ المفتي : ما آخر أمنية لك ؟ اطلب، سينفذها لك الملك قبل أن يقطع السياف رأسك.

قال له: أن تقطع لسان حماري، سخر المفتي ،وقهقه بصوت هادر ، ضحك الجميع من حوله مما سمعوه، ما علاقة الحمار بحكم الإعدام؟ هل هو من حرض الشعب على الملك للمطالبة بحقوقهم ورفع سقف مطالبهم لإسقاطه عن عرشه ؟

يا غباء ذلك الطباخ سخر الجميع هاتفين: رأفة بالحمار.

إلا الحمار طارت عيناه وعادت لمكانهما، صاح الحمار بوجه صاحبه:اصمت لعنك الله...لقد فضحت أمري.

أيها المفتي: أنا مجرد حمار لا علاقة لي بهذا الطباخ الغبي، قاطعه الطباخ وقال له: يا سيدي أنا إنسان بسيط وسواق عربة هذا الحمار الذي كنت أنقل الطعام للملك وأسمعه يشتكي من بؤس حاله وحال أولادي الجياع شاركته الهم علها تفرج أحوالنا.

أجل و كنا أنا وهو نشم رائحة طعامك الشهي يا مولاي، نتخيل كيف نلتهمه، وكيف نطعم أولادنا منه، نتحدث معًا: إلى متى نشم ولا نذوق ألا يحق لنا أن نستريح بعد

كل هذا التعب ؟ جاء الملك بالحمار وسأله؟ هل صحيح ما يدعيه هذا الرجل عليك؟
شهق الحمار ونهق وضحك حتى بانت تركيبة أسنانه، أجابهُ بسخرية : وهل أنت حمار يا مولاي لتصدق هكذا كلام، فالحمار لا يتكلم!!
قال الملك : ههه، وأنت الآن تتكلم وتنطق ما بال حالك ؟
قال الحمار : يا مولاي، غاباتي وحوش سكانها قرود، يزدادون ترفًا على قممهم جيوش ، يصطادون الماموث، لتزيد لعناتهم قروشًا، يعتمرون ويحجون، ويصلون ويرمون الأوساخ في الفروش
يحتلون الأديان على أنهم أئمة و كهنة وهم يغازلون العروش
غاباتي أمراء وسلاطين،تيجانهم قواميس، أمواتهم يعشقون الخفافيش.
وأنا يا مولاي عاشرت كل البشر، حتى نطق لساني من بؤس حالهم، ارحمني يا سيدي؛ سأعود حمارًا ولا علاقة لي بالبشر ، اقطع لساني.
الهم الذي يتحملونه أثقل من الحمل الذي أحمله فوق ظهري... أمرهم الملك بإعدام الطباخ والاحتفاظ بالحمار خوفًا من مطالبته بحقوق الحيوان.

.....

هكذا كانت نهاية القصة التي قرأتها على مدار يومين.
بعد مدة ليست بالطويلة اتصلت بالسيد (ذهب) كي أعطيه الكتاب الذي تركه على الطاولة عندما كنا معًا في تلك الليلة؛
قال لي : إنه لك، أحضرته من أجلك ومن شدة توتري نسيت أن أخبرك بأمره .
هي هدية صغيرة ومتواضعة من أجلك، علمت أنك تهوين القصص والمغامرات. جئت لك بهذا الكتاب.
ثم انتهى الحديث على أمل أن نلتقي مرة أخرى.
ومن حينها لم أر السيد(ذهب) ولم أسمع عنه شيئًا ، وهنا طويت صفحة أخرى من حياتي لا أعلم متى تبدأ بقصة جديدة.

النهاية.....

****

ديوان العرب للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية – بورسعيد

تليفون : 00201211132879

جميع حقوق النشر الورقي
و الإلكتروني محفوظة للناشر